رد على إرنست ماندیل

بقلم نيقولا كراسو

إن رد إرنست ماندیل على نقدي لماركسية تروتسكي يستدعي بعض التوضيحات. وقد لا يخلو الأمر من كبير نفع إذا ركزنا النقاش على المسائل الثلاث الأساسية التي يثيرها، وهذا قمين أصلا بإيجاد حل لمعظم النقاط التي هي موضع خلاف بيننا.

لقد كان تحليلي يرمي إلى محاولة إعادة بناء **وحدة** فكر تروتسكي وأفعاله بصفته ماركسيا. ولا يحاول ماندیل بصورة من الصور في رده أن يبحث عن تلك الوحدة. فمن منظور التسلسل الزمني يفصل تروتسكي 1904 عن تروتسكي 1905، وتروتسكي 1912 عن تروتسكي 1917، وتروتسكي 1922 عن تروتسكي 1926، كما انه يفصل بنية فكر تروتسكي عن عمله السياسي. ولقد كان مقصدي أن أبين أن نشاط منظورا إليه كلا واحدا يمثل "اختلافا نوعيا" غير قابل الإرجاع إلى مبادئ مجردة. أما ماندیل فلا يقيم عمليا من اعتبار لا لأسلوب تروتسكي في أدائه لوظيفته كقائد حزبي. ولا لدوره كقائد عسكري، ولا لعمله كمصرّف إداري للشؤون العامة.

من الأهمية إذن بمكان أن ننوه من البداية بأن ماندیل قد عارض أطروحات بحثنا بانتقادات جزئية. ولم يعارضها بنظرية مضادة عن ماركسية تروتسكي. ولقد جازف، باختياره هذا الطريق، بركوب مركب النزعة التجريبية. وبالتالي بالعودة إلى المقارنة التقليدية بين تروتسكي وستالين، مع أن أحد أهداف بحثي كان محاولة إخراج المناقشة من هذا المأزق. فغالبا ما ينظر إلى الصراع بين تروتسكي وستالين في العشرينات على أنه صراع مبادئ. مع أن وضع تروتسكي وستالين في وضع القطبين المتعارضين كان كارثة. على حد ما تنبأ لينين في وصيته. وإذا كنا نريد اليوم أن نصدر حكما على تروتسكي أو ستالين. فلا مفر من أن نتخذ لينين نقطة انطلاق. وإنما من هذه المسلمة سرنا في محاجتنا كلها. أما ماندیل فقد قسم فكر تروتسكي إلى مراحل منقطعة، وفصله عن عمله، فكان أن حال ذلك دونه ودون تعيين الموقع الحقيقي لتروتسكي في التاريخ أو في الماركسية.

1 - تروتسكي والحزب

ينكر ماندیل أن يكون تروتسكي قد دلل على نزعة سوسيولوجية متلاحمة وأن يكون قد هون بصورة دائمة من الدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية. والحق أن المرحلة الأولى من حياة تروتسكي (1902-1917) لها هاهنا أهميتها الكبرى. ومحاجة ماندیل ذات وجهين: فهو ينفي أن تكون فكرة تروتسكي عن الحزب الثوري مقتبسة عن نموذج الحزب الاشتراكي-الديمقراطي الألماني. أي حزب يضم جماع الطبقة العاملة بالتعارض مع النموذج اللينيني في "ما العمل؟". بيد أن تروتسكي لم يخص الحزب بمعالجة منفردة إلا مرة واحدة. وذلك في معرض هجومه العنيف على لينين عام 1904. ويعلق دويتشر على هذا الموقف بوضوح لا مستزاد عليه:" إن تروتسكي يعارض هذا التصور عن حزب ينوب مناب البروليتاريا(1). بخطة اكسيلرود عن حزب واسع القواعد طبقا لنموذج الأحزاب الاشتراكية-الديمقراطية الأوروبية"(2).

وفي تلك الأهجية نفسها كال تروتسكي المديح للقادة المناشفة الذين كانوا الأنصار الأوائل لحزب من ذلك الطراز في روسيا. وبعد عامين من الزمن أعرب تروتسكي في "نتائج وتوقعات" عن عماق شكه في الأحزاب الاشتراكية-الديمقراطية الغربية. بيد أن ذلك لم يدفع به إلى إعادة النظر في تصوره عن الحزب الثوري، وإنما إلى تناسيه تماما، وكانت نتيجة ذلك نوعا من جبرية اجتماعية - ثورية لا تقيم اعتبارا لغير قوة الجماهير. كما أقر بذلك بنفسه فيما بعد(3).

ويعلن ماندیل من جهة ثانية أن لينين. لا تروتسكي. هو الذي اقتبس إلى حد بعيد نظرياته في تنظيم الحزب عن المنظرين الاشتراكيين-الديمقراطيين الألمان والنمسويين. وهذا الزعم يبعث على الدهشة إذا أخدنا بعين الاعتبار أن نظرية لينين بكاملها تشدد اللهجة على ضرورة خلق حزب من **ثوريين محترفين**. دورهم هو على وجه التحديد صنع الثورة. وغني عن البيان أن مثل هذه النظرية كانت بمثابة هرطقة في نظر كاوتسكي وآدلر. وهل كان الانشقاق التاريخي عن المناشفة يقوم على غير هذا الأساس؟ ليس من قبيل الصدفة أن يكون تروتسكي قد عجز في حينه عن فهم دلالة ذلك كله. ان تروتسكي لا يقدم أي برهان على أنه قد فهم حقا فيما بعد درس لينين في نظرية الحزب.

لقد انحاز بلا تردد عام 1917 إلى البلاشفة ولعب دورا بارزا إبان ثورة اوكتوبر. ولكن ماندیل يفضح بنفسه، عن غير قصد، حدود فكر تروتسكي السياسي عندما يكتب :" لقد فهم تروتسكي استحالة الإتحاد مع المناشفة بسبب

سياسة المصالحة التي كانوا ينتهجونها في ثورة 1917". وبالفعل، ان تروتسكي قد انحاز إلى صف لينين لا بسبب **نظريته عن تنظيم الحزب**(تلك النظرية التي كانت الحافز التاريخي لانفصاله عن المناشفة). وإنما بسبب سياسته المؤيدة للانتفاضة المسلحة في عام 1917. ولا يجوز لأحد أن يستخف بأهمية هذا "الاهتداء"، ولكن دوافعه هي التي أحاطت تروتسكي بجو من الشك والريبة داخل الحزب البلشفي بعد ثورة اوكتوبر.

ان تاريخ الصراعات اللاحقة داخل الحزب يظل عصيا على الفهم إذا لم تعط تلك الواقعة حقها من التقدير. والحال أن مانديل لا يدرس هذه المسألة البتة. وهو لا يشير إليها إلا مرة واحدة حينما استشهد بجملة للينين تقول أنه "ليس هناك من بلشفي أفضل من تروتسكي" بعد عام 1917. ولكن هذا "الشاهد" منقول سماعا، كما يبين دويتشر ذلك، وليس هناك من دليل البتة على أن لينين قد نطق فعلا بهذه الكلمات. وهناك بالمقابل مؤشر سلبي : فلينين لم يعلق قط في كتاباته الغزيرة بعد 1917 على ماركسية تروتسكي أو على أسباب ارتداده إلى البلشفية. وهذا الصمت مثير للفضول، ولا سيما أن لينين أتيحت له فرص كثيرة لوضع النقاط على الحروف. وإشارته المقتضبة إلى تروتسكي في وصيته هي الحكم الوحيد الذي يمكن اعتماده.

وبديهي أن تروتسكي أشاد في الثلاثينات بدور الحزب في مجرى أحداث التاريخ. ولكن إذا كان هذا الإلحاح قد صدر عنه، فإنما في محاولة منه لإنشاء أممية رابعة كما سبق أن ذكرنا. وفي هذا دلالة أكيدة على عجزه عن تمثل نظرية لينين، ووعيه لخطئه السالف قاده إلى ارتكاب أخطاء جديدة، وهو لم يتعمق قط في دراسة نظرية لينين عن الحزب وعلاقاته بالمجتمع. ولم يضعها موضع اختبار. وعندما حاول في الثلاثينات أن يشرحها، أذلها إلى صورة كاريكاتورية، وحوّرها عن عمد مضفيا عليها طابعا مثاليا. الأمر الذي ينسجم مع ماركسيته الخاصة به ويبعده في الوقت نفسه عن ماركسية لينين.

هكذا نجده يؤكد في نفس الجملة التي استشهد بها مانديل أن "الأزمات التاريخية للإنسانية تتلخص في أزمة القيادة الثورية". وهذا معناه أن الأزمات الاجتماعية والاقتصادية الهائلة التي عرفها العقد الرابع من هذا القرن في كنهها أزمة "قيادة". ولا مراء في أن مثل هذا التصور المثالي يتنافى وفكر لينين، لأنه تصور يقوم أساسا على نزعة ذاتية مقترنة بمذهب يقول بوحدة الوجود. وبالتوازي مع فكرة تروتسكي عن القادة والقيادة. يتكشف لديه ما يمكن أن نسميه بالصنمية تجاه البرنامج. فقد افترض في مرحلة لاحقة من حيته أن

البرنامج هو الشرط الأساسي للفعالية الثورية. وهو يميزه تمييزا حادا عن **بنية** الحزب التي هي حجر الزاوية في فكر لينين. والبرنامج إذا فهم مثل هذا الفهم يكتسب فضيلة مثالية تضعه فوق السياسة. مع أن لينين يلح، على العكس، على التنظيم ويربطه على الدوام بالبنية الاجتماعية وبتناقضاتها الداخلية الموضوعية. ومن هنا كان الفارق الهائل في النتائج التي تمخضت عنها هاتان التجربتان من تجارب "بناء الحزب". فالتجربة الأولى كانت مرتبطة ارتباطا مصيريا بالحركة الداخلية التي كانت تهز المجتمع الروسي من أعماقه. بينما لم تتوصل الثانية إلى أي نتيجة في البلدان الغربية. ولقد تذكر تروتسكي في أواخر حياته لينين الذي تنكر له في شبابه ولكنه لم يفلح قط في التشبه به.

2- صراع العشرينات

لا يمكن فهم الصراعات التي دارت داخل الحزب إلا على ضوء ماضي تروتسكي غير اللينيني. فهذا الماضي هو الذي عزله عن "الحرس القديم" وقاده إلى ارتكاب أخطاء تكتيكية عديدة داخل الحزب. وقد كانت النتائج الذاتية والموضوعية لنأيه الطويل عن الحزب حاسمة. يؤكد ماندیل أن من التناقض القول بأن تروتسكي ارتكب الخطأ تلو الخطأ في صراعه ضد ستالين والقول في الوقت نفسه بأن ستالين كان قد هيمن على تنظيم الحزب في عام 1923:"إن هذين الخطين الفكريين لمتناقضان. ففي الحالة الأولى كان انتصار ستالين نتيجة لأخطاء خصمه. وفي الحالة الثانية كان هذا الانتصار محتوما". والواقع أن ستالين كان قد هيمن فعلا عام 1923 على **تنظيم** الحزب. ولكن هزيمته كانت ممكنة لو اتحد الحرس القديم **سياسيا** ضده. فزعيم الحزب لم يكن قد أصبح بعد سيد البلاد المطلق.

لقد كان ستالين يصور نفسه بنفسه على أنه ممثل فريق قيادي. وكان في مستطاع فريق قيادي حقيقي أن يزيحه. فلو كان بوخارين وتروتسكي وزينوفييف وكامينيف تحالفوا عام 1923، لكان أمكنهم قطعا أن ينتزعوا النصر(4). بيد أن إشهار هذه الحجة يعني في الوقت نفسه طرح السؤال الأساسي: لماذا لم تتحقق قط تلك الوحدة السياسية؟ يقر ماندیل ضمنيا بأن هذا السؤال هو فعلا السؤال الأساسي. ولكنه يطرحه طرحا يائسا:" إن المأساة إنما تكمن في أن سائر أعضاء الحزب البلشفي لم يتبينوا في الوقت المناسب خطر البيروقراطية وخطر صعود ستالين ممثلا لبيروقراطية السوفياتية. ولقد تنبه

جميعهم للخطر في خاتمة المطاف، في مرحلة أو في أخرى، ولكن ليس في آن واحد ولا في زمن مبكر. هذه هي العلة الأساسية للسهولة الظاهرية التي استولى بها ستالين على السلطة".

إن هذه الجملة لا تتضمن أي تفسير للواقعة التي تأتي بذكرها. فمن اللحظة التي يكتفي فيها المرء بالتساؤل عما إذا كان سائر القادة البلاشفة قد تنبهوا أو لم يتنبهوا في الوقت المناسب لخطأ ارتقاء ستالين مدارج السلطة. لا يعود في مقدوره أن يفسر ذلك بغير الصدفة أو الشذوذ.

وبالمقابل فإن تحليلي يتيح إمكانية التفسير الكامل لانقسامات الحرس القديم. فالقادة البلاشفة الآخرون ما كانوا يعدون تروتسكي حليفا. بل كانوا يرون فيه بالأحرى مصدر الخطر الرئيسي بسبب ماضيه غير اللينيني وتفوقه في المضمار العسكري ودوره البارز إبان الحرب ونفوذه في المناقشات النقابية. ولم تكن البونابرتية، كما يحاول ماندیل أن يوحي، مقولة أعاد تروتسكي اكتشافها في الثلاثينات. وإنما كانت على وجه التحديد الخطر الذي رآه بوخارين وزينوفييف والآخرون في تروتسكي. فافتقار تروتسكي إلى التجربة الحزبية جعله موضع شبهة وحال في الوقت نفسه بينه وبين فهم الشكوك والمخاوف والتغلب عليها. فقد كان غريبا كل الغربة عن تلك الخصومات بين الأجنحة والكتل. وكان في خضمها كالتائه. وكان يميل إلى تأويلها على أنها انعكاس إيديولوجي للمنازعات السوسيولوجية التي كانت تهز المجتمع. ولهذا رأى في زينوفييف، ثم في بوخارين، عدويه اللدودين. لأنهما كان "المنظرين الإيديولوجيين" للتحالفات القائمة في فترات متباينة. وبذلك اقترف خطأ مناظرا لخطئهما.

لقد تجاهل تروتسكي لحقبة طويلة من الزمن. وحتى بعد أصبح زعيم المعارضة. أن ستالين هو خصمه الرئيسي. وهكذا ساهم في توحيد الحزب ضده هو نفسه. فالخوف من نمر من الورق حمل موظفي الحزب على إنجاب نمر حقيقي. ولم يتنبهوا إلى ذلك إلا بعد مرور أكثر من عشرة أعوام. ولقد كان تروتسكي في العشرينات هو العامل السلبي الذي تفاقمت بفضله بسرعة الميول الاستبدادية والبيروقراطية. وإذا كانت السلطة قد تراكمت بين يدي ستالين. فإن ذلك يرجع في البداية إلى رغبة الحرس القديم في الدفاع عن نفسه ضد تروتسكي. فلقد كان تروتسكي يرى أن الحرس القديم وجل ومتردد أكثر مما ينبغي، ومستسلم للضغوط الاجتماعية الصادرة عن روسيا المتخلفة. وبالمقابل كان تروتسكي في نظر موظفي الحزب مغامرا خطرا. هكذا تكون مناورات

تروتسكي الهادفة إلى قسم الحزب باسم المبادئ الخالصة قد أدت، على عكس ما كان منتظرا منها، إلى خلق تحالف موجه ضد تروتسكي وغير قائم على أساس أي مبدأ. وبذلك انتزع ستالين النصر بواقعيته، في وقت كان فيه جهاز الحزب واعيا أتم الوعي لعزلته عن الجماهير.

لم يكن ستالين ينتمي لا إلى اليسار ولا إلى اليمين، وكان أعضاء الحزب يشعرون غريزيا بأنه لا ينتمي أيضا إلى الوسط، فقد كان يجسد في نظرهم فكرة أساسية لها قوة جذب هائلة، وهي أن السلطة يجب أن تصان. وبمعنى من المعاني فإن "قوة العطالة" الكامنة في الوضع القائم آنذاك هي التي جعلت صعود ستالين محتوما: فتلك كانت أسهل وسيلة لصيانة السلطة ولزج البلاد في طريق التطور غير الرأسمالي. هكذا ارتبطت صورة ستالين نهائيا بالسلطة. وكان لخصومه بالذات إسهامهم في ذلك. قال بوخارين لكامينيف في عام 1928: " إن موقفنا ميئوس منه. فإذا غرق المركب ببلادنا فسنغرق نحن (أي الحزب) معه. وإذا تمكنت البلاد من معاودة النهوض وإذا غير ستالين الاتجاه في الوقت المناسب. فسنغرق كذلك(5). ان تروتسكي لم يفهم ذلك قط. فاقترف سلسلة من الهفوات السياسية (6) التي ضمنت لستالين النصر.

ان المشكلة الخطيرة التي إنطرحت على الحرس القديم إنما طرحها السياق الاجتماعي-السياسي لروسيا في تلك الحقبة. فقد كانت المؤسسة المتمثلة بالحزب تعيش في الفراغ الاجتماعي المكشوف الذي أعقب الحرب الأهلية. وهذا يفسر الأخطاء التي ارتكبها تروتسكي داخل الحزب كنتيجة لاستخفافه بالاستقلال الذاتي للمؤسسات السياسية. ان النزعة السوسيولوجية خطأ نظري دائم، ولكن نتائجها كانت ماحقة في روسيا العشرينات. فقد كانت الحرب الأهلية قد فتت في عضد جدل القوى الاجتماعية الجماهيرية. وكانت الطبقة العاملة قد أقصيت عمليا عن خشبة المسرح السياسي بحكم انقسامها وتشتتها. وما كان أحد يملك الجرأة على توجيه نداء إلى الجماهير بعد ما حدث في كرونشتاد.

هكذا وجدت الاشتراكية نفسها بين عشية وضحاها صاحبة الأمر والنهي في الثورة، في وقت كانت فيه منفصلة عن القاعدة.

وكان حكم تروتسكي على هذا الوضع خاطئا، كما يبرهن على ذلك ماندیل بتحليله المتناقض لتوقعات تروتسكي ومنظوراته في العشرينات. فمن جهة أولى يقول ماندیل أن برنامج تروتسكي السياسي كان "غير واقعي" لأن "الشروط **الذاتية** لوضعه موضع تطبيق لم تكن متوفرة. فلقد كانت البروليتاريا

السوفياتية سلبية ومجزأة، وكانت تنظر إلى برنامج المعارضة اليسارية بعين محبذة. ولكنها ما كانت تملك ما فيه الكفاية من الطاقة الكفاحية للنضال في سبيل تطبيقه. وبخلاف ما يعتقد كراسو. ما كان تروتسكي يعلل نفسه بالأوهام بصدد هذا الموضوع". ولكن ماندیل بعد أسطر قليلة ينقض نفسه بنفسه. فتروتسكي ما كان يناضل من أجل "شرف القضية" ومن أجل "إنقاذ البرنامج" فحسب. مع علمه الأكيد بأن الهزيمة لا مفر منها. فلئن "كانت الطبقة العاملة السوفياتية سلبية. فإن سلبيتها على المدى الطويل لم تكن قدرا مقدرا لا راد له. فقد كان أي انطلاقة جديدة للثورة العالمية وأي تبدل في ميزان القوى الاجتماعية في الداخل قمينين ببعث الطبقة العاملة السوفياتية. ولم تكن الأدوات المباشرة لمثل هذه التغيرات متوفرة إلا في الكومنترن والحزب الشيوعي للإتحاد السوفياتي".

إن هذين التوكيدين لمتنافيان، وفيهما البرهان على مدى صعوبة تبرير الخط الذي سار فيه تروتسكي، والواقع أن تروتسكي ما كان يرى أن برنامجه "غير واقعي". ومناظرته مع راكوفسكي تأتي ببرهان قاطع على ذلك. فرسالة راكوفسكي إلى فالانتينوف هي في غالب الظن أعمق تحليل اجتماعي في العقد كله. ولكن تروتسكي ردها بلا استئناف. ولئن فعل ذلك فإنما لأنه كان يعتقد أن البروليتاريا السوفياتية ما تزال قادرة على الكفاح. وبناء على هذا الاعتقاد خاض المعركة داخل الحزب. وبكلمة واحدة، استخف بدرجة انحلال الطبقة العاملة بعد الحرب الأهلية.

أما لينين فكان على العكس واعيا لذلك أتم الوعي. وقد طرح المشكلة بصراحة: "أين صناعتكم الثقيلة؟ ما هي تلك البروليتاريا؟ أين صناعتكم؟ لماذا لا تفعل شيئا؟". هكذا تساءل في عام 1921، وفي تساؤله هذا عقدة المشكلة: لا "سلبية"الطبقة العاملة (كما يقول ماندیل). أي الشروط الذاتية، وإنما انحلالها وتفتتها. أي البنية الموضوعية. فقد كان تعدادها قد تناقص بنسبة الثلثين،كما تحول تركيبها وتبدل لأن خيرة المناضلين كانوا قد قضوا نحبهم أو انصرفوا إلى ممارسة وظائفهم داخل الحزب. هذه هي الخلفية السوسيولوجية التي دارت في سياقها صراعات الحزب الداخلية. ولقد تنبه لينين لهذه الحقيقة في أول العقد مثلما تنبه إليها راكوفسكي في آخره. ولكن تروتسكي لم يتنبه لها قط، لأنه كان يؤمن بأولوية القوى الاجتماعية وهيمنتها.

هل هذا معناه أن الحزب الشيوعي السوفياتي كان يؤلف كيانا سياسيا منفصلا كل الانفصال عن البنية الاجتماعية لروسيا السوفياتية؟ كلا، بالتأكيد، ولقد أقام

فكر ماركس البرهان لا على الاستقلال الذاتي للجهاز السياسي داخل التركيب الاجتماعي **فحسب**، بل **أيضا** على أن الاقتصاد هو الذي يتحكم في الجهاز السياسي في التحليل الأخير. والخطأ المعاكس الذي ارتكبه تروتسكي هو إيمانه بالقدرة المطلقة للمؤسسات السياسية مفصولة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي. وماندیل يحلل رائع التحليل النتائج التي يفضي إليها مثل هذا الإيمان عندما يكتب :" ان سياسة القوة الخالصة تذل أبطالها إلى درجة يفقدون معها نهائيا السيطرة على زمام أعمالهم بالذات. وتتراخى الرابطة بين الغايات الواعية و النتائج الموضوعية لهذه الأعمال حتى لتكاد تتلاشى. أما الماركسيون فيعلقون على العكس كبير الأهمية على العمل الواعي، والوعي يفترض وعي الدور الحاسم للقوى الاجتماعية وللحدود التي يفرضها هذا الدور حتما على عمل كل فرد... والواقع أن ستالين هو الذي وقع ضحية إيمانه بالإمكانيات المستقلة ذاتيا ل"سياسة القوة" التي جعلت منه أداة لا واعية للقوى الاجتماعية التي لم ينتبه إلى وجودها على ما يبدو حتى نهاية حياته".

إننا لنلمح هاهنا تباشير تفسير جديد وعلمي لدور ستالين التاريخي. تفسير لا ينيط كل شيء بعامل الشخصية على نحو ما يفعل تلامذة ستالين وأعداؤه سواء بسواء(7). والمفروض في مثل هذا التفسير أن يسلط الضوء على دلالة العلاقة بين السهولة التي انتزع بها النصر داخل الحزب في العشرينات وبين الضراوة التي أجرى بها التطهيرات في الثلاثينات. ولا ريب في أن ستالين قد خاف من أن تتوطد زمرة اجتماعية جديدة في الحزب وجهاز الدولة. فلم يتردد في إهلاك وإبادة العديد من أنصاره بالذات عندما تنبه لذلك الخطر. وهذا ما يحملنا على الاعتقاد، كما نوهت آنفا، بأنه نظر بعين الجد إلى التحذيرات التي صدرت عن تروتسكي في الثلاثينات من خطر "ردة بيروقراطية"(8).

ولا بد من التنويه هنا بأن مشكلة البيروقراطية -كما يذكر ماندیل- كانت شاغلا رئيسيا للينين في سني حياته الأخيرة. ففي العشرينات كان الاستقرار المؤقت للرأسمالية قد أصبح حقيقة واقعة. وكان لينين يردد على الدوام وبصورة متزايدة على أن السياسة الثورية أن تكون مزيجا من الصلابة التي لا تقبل مساومة ومن القدرة على عقد تسويات. بل إننا نجده منذ عام 1918 في مقاله عن اليسار الطفولي والروح البورجوازية الصغيرة يتكلم عن مكامن الضعف في روسيا "حيث لا تتمتع بدرجة رفيعة من الثقافة ولا بعادة التسوية". وغني عن البيان أن رجل السياسة يعجز عن الإتيان بحلول مناسبة إذا كان عاجزا عن النظر إلى الوضع القائم نظرة واقعية. وليس من قبيل الصدفة على

الأرجح أن العديد من رجال المعارضة العمالية (ممن لم يكن لهم شاغل غير مكافحة البيروقراطية) قد شغلوا فيما بعد وظائف في الإدارة الستالينية ونجوا من التطهيرات. فقد كانت مبادئهم على درجة من السمو تستحيل معها الحياة على ذلك المستوى، ولهذا لم يعد لشيء من الأهمية في نظرهم فيما بعد. أما معارضة لينين لنزعة التدويل البيروقراطي والإداري (تلك النزعة التي كان تروتسكي ممثلها الرئيسي في بادئ الأمر) فقد كانت واقعية. ومن اللحظة التي فهم فيها ممثلو المعارضة العمالية أن أهدافهم طوبائية. وجدوا أن الصيغة الستالينية للواقعية أسهل قبولا من أي صيغة أخرى.

إن لينين لم يطرح قط مشكلة النضال ضد البيروقراطية -تلك المشكلة التي كانت شاغله الرئيسي في أواخر حياته- طرحا مثاليا، ولم يقع قط في أحابيل الرومانسية السياسية التي لا تقبل إلا ب"أحد الأمرين". ولم تكن المسألة في نظره مسألة ما إذا كان من الواجب أو من غير الواجب تصفية البيروقراطية. فقد كان يعرف حق المعرفة التناقضات التي لا حل لها والتي تسم بميسمها السياسة الداخلية والخارجية على حد سواء. وكان يرى أن الوسيلة الوحيدة للتغلب على تلك التناقضات هي انتهاج سياسة تجريبية عن عمد ووعي. فمن الواجب مكافحة البيروقراطية والنزعة الاستبدادية. إلا أن التسويات ضرورية وحتمية في هذا النضال. ولم يكن هدف لينين انتصارا كاملا ومستحيلا على النزعة البيروقراطية. وإنما كان بالأحرى معالجتها وتصحيحها قدر الإمكان. هذا هو معنى دوره الحاسم في المناقشات النقابية عندما عارض بحزم دعوة بوخارين وتروتسكي إلى التدويل وأصر على منح النقابات الحق في الدفاع عن العمال ضد الدولة السوفياتية :" إن الرفيق تروتسكي يتكلم عن الدولة العمالية. اسمحوا لي بأن أقول لكم إن هذا تجريد... ان دولتنا بوضعها الراهن توجب على البروليتاريا المنظمة أن تدافع عن نفسها وأن تستخدم المنظمات العمالية للدفاع عن العمال ضد الدولة ولدفاع العمال عن دولتنا".

لم ينظر لينين قط إلى الدولة نظرة مثالية. وقد كتب عام 1921 :" إن الدولة العمالية تجريد، أما في الواقع فإن لدينا دولة عمالية سماتها هي التالية: 1- ان الفلاحين لا العمال يؤلفون أغلبية السكان. 2- أنها دولة عمالية مشوهة بيروقراطيا". وانه لمما يلفت النظر أن يكون لينين قد ارتأى أن من الضروري الكلام عن "دولة عمالية"، حتى وإن كانت مشوهة بيروقراطيا، فقد كان واعيا عميق الوعي لضرورة تفهم الوضع في روسيا على حقيقته و بكل خصوصيته. وكانت "النزعة البيروقراطية" تتعادل في نظره مع مفهوم "الدولة العمالية"

من حيث التجريد. ولكن الماركسية التي كانت مسيطرة على فكر ملاكات الحزب كانت ماركسية بدائية. والماركسية البدائية لا تصلح أبدا لاستيعاب وضع تاريخي جديد. ولا سيما إذا كان كوضع روسيا في العشرينات. ومن جهة نظر الماركسية البدائية لم يكن للحل من وجود. وكان على الحزب بالتالي أن ينكص عن البحث عنه، وبالفعل حاول بوخارين وكثيرون غيره أن يتملصوا من المأزق بانتقالهم من المواقف اليسارية المتطرفة إلى المواقف اليمينية المتطرفة. وكان وراء هذا كله نوع من اليأس وعندما اتخذ الحزب في عام 1918 قرارا بقبول المنتجات الغذائية من الأمريكان. بكى بوخارين وقال لتروتسكي :"إنهم في سبيلهم إلى تحويل الحزب إلى كومة من الزبل"(9).

لقد كانت ردود فعل تروتسكي وستالين على هذا الوضع مختلفة بحكم اختلاف نوعية ماركسيتهما. ويكفي هنا أن نشير إلى أن ماركسية تروتسكي غير قابلة للتعريف والتحديد بوصفها الوجه المعاكس الإيجابي لماركسية ستالين. وإذا ما عارضنا بين مواقفهما بصورة متناظرة. فهذا لا يعني أننا نؤيد مواقف أحدهما دون الآخر. وأخطاء هذا لا تلغي أخطاء ذاك ولا تبدل من طبيعتها. و"النزعة السوسيولوجية" و "سياسة القوة" على حد سواء موقفان بعيدان كل البعد عن اللينينية.

3- روسيا والثورة العالمية

"الاشتراكية في بلد واحد أو الثورة الدائمة" : هذا هو المحور الذي يركز عليه ماندیل آخر تعليقاته على مقالتي. وهذه على كل الأحوال فرصة أغتنمها لتصحيح بعض الأخطاء الثابتة بصدد تاريخ الحركة الثورية الأممية مند العشرينات.

يرى ماندیل أن تروتسكي انتهج سياسة داخلية وخارجية متلاحمتين انطلاقا من أطروحة "الثورة الدائمة". ولكنه لا يأتي بحجة واضحة محددة لدحض تحليلي للتناقضات التي شيد عليها مفهوم الثورة الدائمة. ومن هنا جاز لي الافتراض بأن تحليلي يحتفظ بصحته.

ينكر ماندیل أن تروتسكي عندما يحاجج ضد فكرة "الاشتراكية في بلد واحد" كان يؤمن ضمنا بحتمية انهيار الإتحاد السوفياتي بنتيجة "غزو السوق العالمية أو العدوان العسكري". ويزعم كذلك أن سياسة تروتسكي في التصنيع المتسارع كانت تصاحبها سياسة محددة تجاه كل طبقة من طبقات الإتحاد

السوفياتي الاجتماعية. أي أسلوب صحيح في "معالجة التناقضات في صفوف الشعب".

ولكن البداهة لا يمكن أن تخفى على أحد بصدد هاتين النقطتين. يقول تروتسكي في "الثورة الدائمة": "ان أزمات الاقتصاد السوفياتي ليست محض أمراض نمو، ليست نوعا من اضطرابات طفولية، وإنما هي شيء أفدح من ذلك شأنا وخطرا. إنها نتيجة للعراقيل القاسية التي يضعها في وجه الإتحاد السوفياتي سائر العالم". ومن أول محاجته إلى آخرها يؤكد أن الرأسمالية العالمية، بنظامها الاقتصادي، تجعل من رابع المستحيلات بناء الاشتراكية في بلد واحد (وأن كان لا يبين كيف ولماذا). وكذاك هو موقفه عندما يتكلم عن تدخل عسكري أجنبي. فهو يكتب :"إما أن تتسلم البروليتاريا زمام السلطة. وإما أن تسحق البورجوازية الاندفاعة الثورية وتستعيد حريتها في العمل. ولا سيما في مسألة الحرب والسلم. والإصلاحي هو وحده الذي يستطيع أن يتكلم عن ضغط البروليتاريا على دولة بورجوازية كما لو أنه قوة لا تني تنمو وكما لو أنه ضمانة ضد التدخل"(10).

وواضح من مجمل كتاب تروتسكي أنه كان يؤمن بحتمية انهيار الإتحاد السوفياتي اقتصاديا أو عسكريا. ولا يبدل من هذه الحقيقة شيئا كونه قد أضاف متحفظا بلهجة خروتشيفية مثيرة للفضول :"ان بلدا متأخرا يتمكن، بعد عدة خطط خمسية، من بناء مجتمع اشتراكي قوي بقواه الذاتية وحدها، سيكون قدوة تسدد ضربة مميتة إلى الرأسمالية العالمية وتخفض إلى الحد الأدنى، بله إلى الصفر، تكاليف الثورة البروليتارية العالمية". وبديهي أن ستالين لم يؤكد شيئا من هذا القبيل قط(11).

ولا غرو بعد هذا ان تكون سياسة تروتسكي في التصنيع قد أحاط بها إبهام شديد: فالتصنيع كان في نظره تدبيرا استثنائيا بانتظار ثورة أممية تنقد الموقف. و ماندیل يقدم بنفسه البرهان على ذلك إذ يستشهد بالاقتراع المضاد الذي قدمته المعارضة اليسارية ردا على دعوة ستالين إلى التصنيع الشامل : "فرض ضريبة خاصة على الفلاحين الأغنياء وتقليص النفقات الإدارية بمقدار مليار روبل ذهبي سنويا". أن الطابع النظري المحض، بله الديماغوجي، لهذا الاقتراح لا يكاد يحتاج إلى بيان. فتمويل التنمية عن طريق تقليص نفقات الدولة هو الحلم الطوبائي لكل بلد متأخر. ومن الصعب أن نصدق أن يكون تروتسكي قد حمل ذلك الاقتراح على محمل الجد. فهو لم يكن بصورة من الصور وسيلة ناجعة للخروج من وضع 1928 الاقتصادي اليائس ولتحطيم الحصار الحقيقي

الذي كان الفلاحون الكولاك قد فرضوه على المدن. وبرنامج تروتسكي للتصنيع، بالرغم من نفاد بصيرته الاقتصادية، لا يقدم أي حل سياسي لمشكلة الفلاحين كطبقة. ومن هنا فإنه ترك الباب مفتوحا أمام مصادرات ستالين والحرب التي شنعا على الكولاك. وانحياز بريو براجنسكي وبياتاكوف على نحو مفاجئ إلى سياسة ستالين في عام 1929 لا يدع مجالا للشك في ذلك. فلو أن برنامج المعارضة للتصنيع كان يتضمن صيغة **سياسية** حاظية بتأييد الجميع. لما أمكن حدوث مثل ذلك الارتداد.

لقد كان منظور "الثورة الدائمة" الأممي هو الحجة الأساسية في تبرير هذه السياسة الداخلية الناقصة. لننظر إذن في تأويل ماندیل لهذا المفهوم، فهو يرد بصورة قاطعة الفكرة التي تقول أن مفهوم الثورة الدائمة يعني الإيمان بوشكان وقوع انتفاضة عالمية. بل يصرح على العكس أن الأوضاع الثورية في تلك الحقبة التاريخية كانت تتكرر بلا انقطاع ولكن من دون أن تؤدي إلى استيلاء مظفر على السلطة. وهو لا يقيد ذلك المفهوم بحدود جغرافية، ولكننا نستطيع الافتراض بأنها كانت تمتد على نطاق العالم بأسره. والحال أننا إذا ما أولنا فكرة "الثورة الدائمة" مثل هذا التأويل، فإنها تكف عن أن تكون مغلوطة بل مبتذلة. فمن ذا الذي كان سيشكك، ضمن إطار الكومنترن، بأن العصور التاريخية تتميز بظهور دوري لأوضاع ثورية؟ ولكن ما قيمة هذا التوكيد؟ ان "العصر" ينطوي على عدد كبير من السينين، وهو يقاس بالعقود. وقد تفصل بين الانفجارات مسافات زمنية طويلة، ولكنها تظل مع ذلك "دورية". فأي معنى يتبقى للثورة الدائمة إذا سحبت على مطلق الزمن؟ لا أعتقد أنه يتبقى لها معنى كبير.

بيد أن تأويل ماندیل لهذا المفهوم ينطوي أيضا على شق جدالي، فهو يرى أن أوضاعا ثورية قد قامت في العديد من الأقطار الأوروبية بعد عام 1919. ولكن لم يؤدي أي منها إلى ثورة اشتراكية، وأن تبعة هذا الفشل إنما تقع على الكومنترن وعلى الحزب السوفياتي الذي كان يسيطر عليه: "ينبغي أيضا أن تعزى هزائم الطبقة العاملة بين 1920 و1943 بلا لبس إلى عدم كفاءة القادة".

هنا تصبح الثورة الدائمة ذريعة لإدانة السياسة الخارجية السوفياتية. ولا ريب في أن مثل هذا التفسير لفكر تروتسكي في الثلاثينات صحيح. ولكن هل هذه وجهة نظر صحيحة تاريخيا؟ ان ماندیل ينقد بسداد التفسيرات البسيكولوجية للسياسة الستالينية ويؤثر عليها التفسيرات السوسيولوجية. ولكنه لا يتبين أنه يرتكب الخطأ عينه. على مستوى مختلف، عندما يعزو إلى سياسة

الإتحاد السوفياتي جميع الهزائم الهامة التي منيت بها الحركات الثورية منذ عام 1922. وهذا بالضبط ما كانه خطأ تروتسكي. ومرده تهوينه من أهمية الأمة كمؤسسة سياسية(12). ذلك أن الكومنترن ما كان في الواقع المتحكم الأوحد بمصير الحركات الثورية في كل قطر من أقطار العالم. هذه حقيقة يفترض في كل ماركسي أن يسلم بها. ومن ير غير هذا الرأي يكن مبالغا إلى أبعد حدود المبالغة بالتأثير الذي كانت تمارسه الدولة السوفياتية الفتية على الشؤون العالمية. وتجد هاهنا القناعة البدائية المعادية للماركسية التي تزعم أن الكرملين مسؤول عن كل انفجار للاستياء الاجتماعي أو عن كل ثورة في أي مكان من العالم. تجد نقيضها في ماركسية بدائية هي الأخرى تزعم أن الكرملين مسؤول عن كل قمع للمستاءين وعن كل انتصار للثورة المضادة. ان هذا التصور يتنافى والتقييم العقلاني للتاريخ العالمي. وهو مبني على نفس تلك النزعة السوسيولوجية الواحدية التي انتقدتها لدى تروتسكي: التوكيد على وجود "بنية اجتماعية كونية تحلق فوق التمفصلات العينية لكل نظام سياسي". وتكون النتيجة نسب قوة سحرية مطلقة إلى الإتحاد السوفياتي. وهكذا لا يتردد مانديل في أن يكتب أن "الخمسين مليونا من ضحايا الحرب العالمية الثانية" هم "نتيجة" لسياسة الكومنترن، وغني عن البيان أن هذه الطريقة في التفكير مثالية لا تمت بصلة إلى الماركسية.

ويكفي أن ننسب إلى ستالين الفكرة القائلة بأن الثورة المضادة تجتاح العالم قاطبة حتى لا يعود هناك من داع موضوعي لتقليص عدد الثورات الفاشلة (أينما وقعت) التي تقع على الإتحاد السوفياتي تبعة إخفاقها. وفي تقدير مانديل أن هذه الثورات لم يكن بينها و بين النصر سوى شعرة واحدة لا حصر لها : لا أقل من أربع بالنسبة إلى ألمانيا، وثلاث بالنسبة إلى فرنسا، بل ربما واحدة بالنسبة إلى انكلترا، وهي جميعها انطلقت من "أوضاع ثورية". إن نظرة خاطفة نلقيها على هذه القائمة يكفي لتبيان مدى بعد ذلك التصور عن التاريخ. لقد حيا تروتسكي في حينه الإضراب العام في انكلترا كإشارة إلى تصاعد المد الثوري العام. بيد أن الطبقة العاملة البريطانية لم تتوصل إلى أن تقيم البرهان على " رغبة غريزية في أن تمسك بيدها زمام مصير المجتمع". فقد كافحت في سبيل أهداف محدودة ومحددة. واستسلمت لإخفاقها في تحقيق أي منها (كان تقييم الحزب الشيوعي البريطاني للموقف بعيد النظر ومغايرا لتقيم تروتسكي المغلوط). أما في فرنسا وإيطاليا عام 1945 فقد كان الوضع يحيط

بالشكوك أي محاولة مسلحة يقوم بها الحزبان الشيوعيان القوميان للاستيلاء على السلطة.

ولنا في مثال اليونان دليل على ذلك، فقد كان اليسار في اليونان أقوى بكثير منه في فرنسا وإيطاليا. وكانت البلاد ذات طابع امبريالي أوهى من طابع فرنسا وإيطاليا. ومع ذلك سُحقت الثورة اليونانية بلا رحمة أو شفقة على يد الغزو الإنكليزي-الأمريكي. والحال أن فرص توريز وتولياتي كانت أضعف من فرص الحزب الشيوعي اليوناني.

ولنا في الحرب الأهلية الاسبانية مثال آخر. ففي تقدير ماندیل أن الشيوعيين الاسبان كان في مقدورهم القيام بالثورة بنجاح مستغلين الصراعات التي قسمت الجمهورية على نفسها في عامي 1936 و1937. وكان في مقدورهم فيما بعد انتزاع النصر العسكري على فرانكو. ولكنهم ما كانوا يمثلون آنذاك سوى أقلية ضئيلة من القوى الجمهورية التي ما كانت تملك أصلا هي نفسها فرصا كبيرة في كسب الحرب بعد أن تبلور ميزان القوى العسكري. وكذلك كانت فرص ثورة اشتراكية مظفرة في ألمانيا واهنة للغاية. فالحزب الشيوعي الألماني لم يبلغ في يوم من الأيام من القوة ما يؤهله لمواجهة القوات المسلحة التي أعاد الاشتراكيون-الديمقراطيون تسليحها وتجهيزها في عام 1918 لأهداف مناهضة للثورة على وجه التحديد. والتي ما ونوا يدعمونها فيما بعد. ولقد كان هذا الوضع الاستراتيجي قائما قبل النازية. وكان إحباط مخططات النازية شيئا. والقيام بثورة بروليتارية شيئا آخر.

لقد كانت سياسة ستالين في فرنسا وإيطاليا، وبوجه خاص في ألمانيا، خاطئة بلا ريب. ولقد أشرت في مقالي الأول إلى أخطاء الأممية الثالثة المتعاقبة. أضف إلى ذلك أن نقد تروتسكي لسياسة الكومنترن في ألمانيا ممتاز(من المفيد أن نلاحظ بالمناسبة أن أنجح مجادلاته في تلك السنين هي تلك التي كتبها من وجهة نظر يمينية، لا من وجهة النظر اليسارية التي تبناها في مرحلة الجبهات الشعبية). ولكن سياسة ستالين الأممية لم تكن، في جميع تلك الأمثلة. سوى عامل ثانوي في نضال يدور ويتقرر مصيره على صعيد **قومي**. فقد كانت الأمة هي إطار صراع الطبقات. وما كانت سياسة الكومنترن، المرسومة في موسكو، لتبدل شيئا في هذه الواقعة. وما كانت سياسة ستالين الأممية تشرع باكتساب طابع حاسم إلا متى كفت الأمة عن الوجود كأمة - أي في زمن الحرب. فآنذاك، وآنذاك فقط يصبح دور السياسة السوفياتية هو الغالب بالنظر إلى انهيار الحدود القومية وانحلال البنى الاجتماعية للأمم بصورة مؤقتة.

وعندما أنشأ الجيش الأحمر في أوروبا الشرقية **حزاما صحيا** أنجز ما لم تستطع أي من تعليمات الكومنترن إنجازه.

لقد ارتكب تروتسكي غلطة فادحة عندما استخف بالاستقلال الذاتي للمؤسسة السياسية التي تمثلها الأمة-الدولة. وهذه الغلطة تثب إلى الأنظار وثبا عندما يؤكد أن " سياسة الكومنترن الخاطئة" جعلت الثورة من رابع المستحيلات بالنسبة إلى الأحزاب المنتمية إلى الأممية الثالثة. وقد كذب التاريخ هذا الحكم تكذيبا صارخا، مؤكدا (عن طريق البرهان على العكس) مدى الأهمية الثانوية لتأثير تلك السياسة على الحركة الثورية في كل قطر من أقطار العالم على حدة. والبرهان القاطع على ذلك قدمه الصعود الجبار للثورة الصينية(هذا أذا لم نشأ أن نتكلم عن الانتصارات في فيتنام ويوغوسلافيا وألبانيا) .إن الثورة الصينية، ذلك المنعطف التاريخي الحاسم في العقود الأخيرة. تفضح بلا شفقة جميع أخطاء تروتسكي، فقد كانت ثورة مظفرة قادها حزب لم يتمرد علنا قط على الكومنترن أو ستالين ولم يحاربهما.

كان تروتسكي يعتقد أن ذلك مستحيل. ولهذا قرر إنشاء أممية رابعة. بينما كانت الثورة الصينية تعتمد على الصين نفسها وتستمد قوتها الأساسية من الفلاحين. من دون أن تتخلى مع ذلك عن برنامجها الاشتراكي وإيديولوجيتها. وبعبارة أصرح: أدان تروتسكي ماو والحزب الصيني لأنه انسحب إلى الصين الريفية بعد عام 1927. وتنبأ بأن الحركة ستنحط إلى محض حركة فلاحية: وهذا أفصح مثال على نزعة تروتسكي السوسيولوجية(13). ذلكم هو الحكم الذي أصدره على أهم ظاهرة سياسية في تلك المرحلة. وفي هذا الدليل الكافي على ميله الدائم إلى ترجمة المؤسسات السياسية إلى قوى اجتماعية ترجمة فورية. وفي هذا أيضا الدليل الكافي على ما ينجم عن ذلك الانحراف النظري من أخطاء فادحة. يمكن أن نضيف بأن كتابات تروتسكي عن الصين تظهر أنه لم يفهم القوة الثورية التي يمكنها أن يمثلها مقاتلو حرب الأنصار الذين اعتاد بوصفه قائدا للجيش الأحمر على تطويعهم. وفي هذا المضمار المحدد أتبث كل من لينين و ماو تفوقه عليه وإن في أزمان متباينة.

هكذا عجز تروتسكي عن إدراك الدلالة الحقيقية للانتصارات الخارقة التي حققتها المسيرة الطويلة والحرب ضد اليابان. كان تصوره للماركسية تحول بينه وبين فهم الأحداث. ولئن كان قد أصاب في توقعاته بالنسبة إلى الصين في حصة سابقة. فإن ذلك لم يكن ذا نفع له بعد أن تولى ماو قيادة الحزب الشيوعي

الصيني وغير اتجاهه التاريخي. هكذا غابت عن أنظاره تماما أهمية التجربة الصينية التي باتت مركز الزوابع الثورية في منتصف القرن العشرين.

ولقد غابت عن أنظار ستالين أيضا بالطبع. ولكن هنا بالتحديد يكمن جوهر المسألة، فسياسة ستالين ما كانت تقرر حياة الحركة الثورية العالمية. وإنما كانت تقرر بالأحرى مواقف الدولة السوفياتية وأعمالها الحذرة والمحافظة. وكان تأثير هذه الدولة على ما يجري في سائر العالم محدودا بالضرورة فيما عدا الفترة التي خرج فيها الإتحاد السوفياتي من حدوده في 1944-1945. ولم تكن السياسة الستالينية المسؤول الرئيسي عن فشل الثورات الغربية. كما أنها لم تكن المسؤول الأول عن نجاح الثورة في الشرق. والأحزاب التي كانت تملك ما فيه الكفاية من الحيوية حتى تتجاوز تعليمات الكومنترن وتضرب بها عرض الحائط كانت هي الأحزاب التي تملك ما فيه الكفاية من الطاقة الثورية لانتزاع لواء النصر للثورة. أما تلك التي انصاعت لتعليمات الكومنترن الخاطئة. فقد كانت عاجزة عن زحزحة البورجوازية. وكثيرا ما أخطأ ستالين وجانب الصواب في تلك الأعوام. ولكن هذا لا يعني أن تروتسكي. الذي كان له رأي معاكس. كان على حق. لقد اختفت اللينينية مع مبدعها. وكان صدى المجادلات والهجمات والهجمات المضادة في تلك المرحلة يترجع في الفراغ الذي خلفه لينين وراءه.

خاتـــمة

زبدة القول أن موقف اللامبالاة الذي وقفه تروتسكي من المؤسسات السياسية قد فصله عن لينين قبل ثورة اوكتوبر وأبعده عن الحزب البلشفي. وقد وجد نفسه معزولا داخل الحزب في العشرينات- وكان في ذلك هلاكه في آخر المطاف- بنتيجة الأفكار التي نادى بها والأعمال التي قام بها قبل العشرينات. أما في الثلاثينات فقد حالت أمميته المجردة بينه وبين فهم الدينامية القومية الداخلية المعقدة التي كانت تتحكم في تطور شتى الحركات الثورية في العالم. ولقد كانت نزعة تروتسكي السوسيولوجية تؤلف كلا واحدا متلاحما. وغني عن البيان أن نقد أفكاره وعمله السياسي لا يعني البتة التقليل من أهمية النتائج الباهرة التي أحرزها إبان ثورة أوكتوبر والحرب الأهلية. بل على العكس من ذلك. فالشيئان مترابطان ترابطا عضويا كما أشرت إلى ذلك في مقالتي: ان عيوب تروتسكي هي الوجه الآخر لمزاياه.

كتب انجلز يقول أن الاشتراكيين الطوباويين كانوا على خطأ فيما يتعلق بالاقتصاد. وعلى صواب فيما يتعلق بالتاريخ العالمي. ونستطيع أن نقول عن تروتسكي شبيه ذلك. فماندیل يعلن أن تروتسكي كان يجسد "مبادئ الديمقراطية السوفياتية والأممية الثورية". ولكن الواقع لا يمكن أبدا أن يرتد إلى مسألة مبادئ. ولقد كان على تروتسكي أن يدفع غاليا ثمن سمو آرائه : فقد أضحى لا واقعيا وصار أسطورة رومانسية ورمزا. لقد كان ثوريا كلاسيكيا. وكانت مأساته أنه استمر على قيد الحياة في عصر وعالم مولدين(13). من المفيد أن نعيد هذه النقطة الأساسية إلى الأذهان. ذلك أن الماركسية ليست تفاؤلا ساذجا وديعا. وأن يكون المرء ماركسيا فهذا معناه أن يفهم العصر متى بات لا يطاق وأن يفهم الحركة القمينة بأن تحل محله عصرا جديدا.

==========

الهوامش:

1- هذا التصور هو في الواقع صورة كاريكاتورية يرسمها تروتسكي لتصور لينين الحقيقي.
2- "النبي المسلح".
3- "الثورة الدائمة".
4- نوهت في مقالي الأول بمدى تكامل سياسات اليسار واليمين (وهذه نقطة أساسية تجاهلها ماندیل)، فلقد كانت المشكلة التي واجها الحزب هي معرفة إمكانية التركيب بينها وصيغته. والواقع ان وحدة اليسار واليمين التي ما استطاعت المعارضة تحقيقها قد حققها ستالين بثلاث وسائل، فهو قد مزج أولا مزجا فجا بين اليمين واليسار من خلال الانعطافات المتوالية في السياسة السوفياتية الرسمية. وخلق ثانيا أسطورة كتلة مناوئة للحزب، ووحد ثالثا بين أنصار اليمين واليسار إذ زجهم في السجون.
5- "النبي المسلح".
6- تكلمت عنها بالتفصيل في مقالي الأول.
7- يخطئ ماندیل عندما يفترض ان ستالين كان رجلا قليل الذكاء، شبيها بنابليون الثالث، كما أنه لم يكن "ماردا بين أقزام". ولا مراء في ان سمات شخصيته قد شرطت دوره التاريخي. ولكن السياق السياسي هو الذي حدد الطابع الحاسم لهذا الدور. وليس من المستبعد ان تكون سمات تروتسكي السلبية قد أسهمت أكثر من سمات ستالين الإيجابية في صعود هذا الأخير.
8- بعد 1930 طبق ستالين سياسة التجميع على نحو حمل العديد من الموظفين على الشك في رئيسهم. وآنذاك أقصى ستالين أولئك الذين خلقوه ليستبدلهم بأولئك الذين خلقهم. وبذلك يكون قد حقق، بمعنى من المعاني، جزاء من برنامج تروتسكي. فقد حل رجال صغار السن، من أصل عمالي في غالبيتهم، محل الحرس القديم (وقد أصبحوا فيما بعد قادة البلاد: خروتشيف، مالنكوف، الخ). وشملت موجة التطهير الغالبية الساحقة من مؤتمر 1934. وكان هذا هو، من وجهة نظر سوسيولوجية، التعبير الرئيسي الذي حجبته عن الأنظار المحاكمات المسرحية التي جرت لما كان يسمى بالمعارضة اليسارية واليمينية. أي لأولئك الذين باتوا بلا أي مكانة سياسية. والحق ان موظفي الحزب والدولة ما أتيحت لهم قط الفرصة ليصبحوا زمرة ثابتة ودائمة في عهد ستالين.
9- علق لونا شارسكي ذات يوم على موقف تروتسكي بقوله :"ان تروتسكي ينظر إلى دوره كثوري نظرته إلى كنز، وأغلب الظن أنه على استعداد لبذل كل تضحية شخصية ممكنة، بما في ذلك التضحية

بحياته، ليبقى في ذاكرة البشر محاطا بهالة قائد ثوري أصيل". وفي هذا شيء من الحقيقة، فقد كان تروتسكي رجل السياسات والأحكام الدرامية التي لم تكن قابلة على الدوام للتبرير من معايير معتدلة. وفي وسعنا القول بأنه كان أقرب إلى مأساوية شيلر منه إلى مأساوية لينين في أعوامه الأخيرة، ومعلوم ان ماركس وانجلز أخذا على لاسال شيلريته.

10- "الثورة الدائمة".

11- "الثورة الدائمة". ولقد قلت في مقالي الأول ان وجهات نظر ستالين بصدد هذه المسألة كانت أصح من وجهات نظر تروتسكي. فلقد كانت روسيا معزولة حقا، ولكن لم يكن هذا كل شيء، فأثناء مداولات اللجنة المركزية حول معاهدة الصلح مع ألمانيا، في كانون الثاني 1918، صرح ستالين بان المسألة فيما يتعلق بالحركات الثورية الغربية هي مسألة احتمالات لا مسألة حقائق واقعية. وبان الاحتمالات لا يمكن ان تؤخذ بالحسبان. وقد رد لينين آنذاك متسائلا :"ألا نأخذها بالحسبان؟". ولقد كان هذا هو الفارق الأساسي على الدوام بين الرجلين. فلينين لم يتجاهل قط الحقائق الواقعة، ولكنه كان يأخذ الاحتمالات بالحسبان دوما.

12- ان ثمة فارق بالغ الدلالة هنا بين تروتسكي ولينين. ومن الأمثلة الساطعة عليه موقفهما من النرويج وصربيا إبان الحربين العالميتين. فقد كتب تروتسكي في عام 1940 عن النرويج التي كان الألمان قد غزوها: هناك حكومتان تتصارعان مند بعض الوقت في النرويج: حكومة النازيين النرويجيين الذين تدعمهم القوات الألمانية في الجنوب، وحكومة الملك الاشتراكية-الديمقراطية القديمة في الشمال. وما يجري في النرويج هو تصادم مباشر بين معسكرين امبرياليين لا تعدو الحكومتان النرويجيتان المتصارعتان ان تكونا غير أداة في يديهما. أننا لا نمحض تأييدنا لا لمعسكر الحلفاء ولا لمعسكر الألمان. ولا نرى من موجب بالتالي لتأييد أي من هاتين الأداتين اللتين يجري الآن استخدامهما في النرويج""الدفاع عن الماركسية". وبعبارة أخرى، كان تروتسكي يرفض ان يميز الفت من السمين في النضال القومي الترويجي ضد الألمان. وكان يقلد بصورة ميكانيكية ومجردة المواقف الثورية الكلاسيكية في الحرب العالمية الأولى، بالرغم من الفروق البينة في الوضعين، أما لينين فقد بني على العكس كامل سياسته في عام 1914 على أساس إدانة الحرب العالمية بوصفها صراعا بين الامبرياليين. ولكنه قال ان ثمة شيئا من الصحة في النضال القومي الذي كانت صربيا التي باتت مجرد طريدة. لقد كانت ماركسيته على الدوام جدلية بعين الاعتبار التناقضات الرئيسية والتناقضات الثانوية على حد سواء.

13- ان خلاف تروتسكي مع الثورة الصينية يأخذ طابعا بارزا تصبح الدلالة إذا ما قورن بالأهمية المبالغ فيها التي عقها على مثقفين أمركيين لا حول لهم ولا قوة وعلى المجموعات السياسية الصغيرة التي كانوا يمثلونها. ان النزعة السوسيولوجية التي قادته إلى الاستخفاف بالحزب الشيوعي الصيني وإلى اعتباره محض ظاهرة فلاحية، هي نفسها التي قادته إلى الاعتماد بان الطبقة العاملة الأمريكية قوة تاريخية حاسمة في الثلاثينات لأنها تمثل بروليتاريا أكثر الأقطار الرأسمالية تقدما. ولهذا تلبست المناقشات الإيديولوجية بهذا الخصوص دلالة بالغة الأهمية في نظره. ومن هنا كانت غباوة مجادلاته مع برنهام وشاختمان وغيرها (ولاسيما أنه كان مقتنعا في صميمه بان لا طائل تحتها).

14- مولد: نسبة إلى حقبة تلي عصرا كلاسيكيا.(المعرب).

رد ثان على نيقولا كراسو

بقلم
إرنست ماندیل

حاول نيقولا كراسو أن يفسر انتصار ستالين في صراعات الحزب البلشفي الداخلية في العشرينات بنقطتي ضعف أساسيتين مزعومتين في "ماركسية تروتسكي" : نزعته "السوسيولوجية" أي استخفافه الدائم بالدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية. ونزعته "الإدارية" التي تجعل منه مسؤولا عن أصرم تدابير القمع التي اضطر النظام البلشفي إلى اتخاذها ضد الطبقة الكادحة في مرحلة 1920-1921. ولقد بينا مدى عدم تطابق هذه التوكيدات مع الحقيقة التاريخية ومدى عجزها عن تقديم تفسير مطابق لمصير الثورة الروسية بعد 1917 (هذا إذا لم نشأ أن نتكلم عن مصير الثورة العالمية).

ويحاول كراسو في رده أن يدافع عن فرضيته بحجج عامة ونظرية وبدحض مجدد لبعض الوقائع التاريخية التي استشهدت بها في حجاجنا. وقد آلت هاتان المحاولتان إلى فشل محقق وسلطتا المزيد من الضوء على الضعف الجوهري لتحليل مجانب للمنهج الماركسي الذي يمكن بواسطته فهم التاريخ المعاصر وتأويله والتأثير عليه.

نظرة أولى بصدد " التجريبية وعلم التاريخ الماركسي"

كتب كراسو يقول :"كان تحليلي يرمي إلى محاولة إعادة بناء وحدة فكر تروتسكي وأفعاله بصفته ماركسيا. أما ماندیل فلم يحاول بصورة من الصور في رده أن يبحث عن تلك الوحدة". وبعبارة أخرى يحاول كراسو أن يرى في فكر تروتسكي وعمله **كلا واحدا** تتحكم به بعض مبادئ أساسية يسعى إلى كشفها. وإذا ما رفضنا أن نرد عليه على المستوى نفسه (أو إذا ما رفضنا القبول بتعريفه لوحدانية ماركسية تروتسكي. أو إذا ما استبدلنا "مبادئه الأساسية" بمبادئ أخرى لتفسير تروتسكي. وجدنا أنفسنا متهمين بالتجريبية.
سوف نعود في آخر هذا المقال إلى ما نعده المميز النوعي لماركسية تروتسكي. ولكن لنر أولا إلى القيمة الفعلية لحجة كراسو النظرية. إن التطور. من وجهة نظر ماركس. تتحكم به لا أفكار أساسية وإنما قوى متصارعة. وكل

سيرورة تاريخية تتحكم بها تناقضات ذات طبيعة اجتماعية. وإذا ما تصورنا أن الأفكار هي التي تتحكم بسيرورة الحياة وتفسرها. نكون قد رجعنا القهقرى من ماركس إلى هيغل. وإذا ما تصورنا أن هذه الأفكار ساكنة. ثابتة. لا صلة لها لا بتناقضاتها الداخلية ولا بتناقضاتها فيما بينها ولا بتناقضاتها مع العمل. نكون قد رجعنا القهقرى أيضا من هيغل إلى كانط.

إن لمن فادح الخطأ التوكيد بأن حياة تروتسكي تؤلف "كلا واحدا" يكمن مفتاحه في "تصور" إيديولوجي ما. ومن فادح الخطأ أيضا إقامة وحدة هوية بين هذا التصور وبين الخطيئة الأصلية ممثلة ب"النزعة السوسيولوجية". وإنكار تلك الحقيقة التاريخية الواقعة التي تقول لنا أن تروتسكي قد علق كبير الأهمية. بعد التحاقه بصفوف الحزب البلشفي. على دور "العامل الذاتي" في المجالين التاريخي والسياسي. وأنه أصبح أخلص المدافعين تفانيا عن نظرية الحزب اللينينية. وأنه ترك لنا. بوصفه سياسيا ومؤرخا معا. بعضا من أروع الأمثلة على التفهم الصحيح ل " الدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية". إن لفي ذلك التوكيد وهذا الإنكار تفسيرا مغلوطا لماركسية تروتسكي. وبناء مجردا وتعسفيا للفكر. مفصولا عن الواقع سواء أعلى الصعيد النظري أم على الصعيد العملي.

والضعف المنهجي لأطروحة كراسو أدهى شأنا من فشله في تقديم تفسير منطقي لجميع المظاهر الأساسية لنشاطات تروتسكي (ان تفوق النظرية الجدلية على النزعة التجريبية لا يكمن في نفي المعطيات التجريبية و إنما في القدرة على تفسيرها تفسيرا منسجما متلاحما. ونشاط تروتسكي ونظريته في أعوام 1917. أو 1923. أو 1933. أو 1938. لا يمكن تفسيرهما تفسيرا منسجما متلاحما انطلاقا من فكرة تزعم أنه " استخف بالدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية"). وهذا الضعف يقودنا إلى جوهر واحدة من أهم مسائل علم التاريخ وعلم الاجتماع الماركسيين: أعني العلاقات بين الفرد والصيرورة التاريخية.

ليس في مستطاعنا أن ننكر أن كل فرد يمكن أن يعد موضوعا للدراسة جديرا بالاهتمام. ولا أن ننكر أن حياته قابلة لأن تدرس وتفسر جدليا. ولكن مثل هذا العمل هو من قبيل علم النفس الفردي لا من قبيل علم الاجتماع. وهذه الخطة تصلح كل الصلاحية في حالة واحدة ليس إلا. وذلك متى كان موضوع الدراسة أفرادا لعبوا دورا هامشيا في الصيرورة التاريخية.

ان مساهمة ماركس الكبرى في تفهم التاريخ تكمن على وجه التحديد في توكيده بأن الصيرورة التاريخية لا يمكن تفسيرها بمحض تفاعل بين

بسيكولوجيات فردية أو بتشابك آلاف مؤلفة من "القصص الشخصية". فالفهم يستوجب تدخل مفهوم محدد هو مفهوم الطبقة الاجتماعية. وتاريخ العالم ليس تاريخ أفراد يتصارعون بالرغم من أن هؤلاء الأفراد وصراعاتهم لهم وجودهم الواقعي وأهميتهم الكبرى أحيانا). وإنما تاريخ العالم هو تاريخ **صراع الطبقات**. وصبوات الأفراد وحاجاتهم ونضالاتهم وأفكارهم. التي لا بد لفهم التاريخ من فهمها. تؤلف بتداخلها الطبقات الاجتماعية. والصراعات التي تصنع تاريخ عالم متمدين ليست إلا صراعات بين الطبقات الاجتماعية أو داخل الطبقات الاجتماعية.

والأفراد الذين يلعبون دورا حاسما في التاريخ لا يلعبونه إلا لأنهم يتوصلون إلى التعبير جليل التعبير. في مرحلة حاسمة. عن حاجات الفئات الاجتماعية وصبواتها. ودور هؤلاء الرجال ينتهي مع التبدل الجوهري الذي يطرأ على ميزان القوى الاجتماعية الذي دفع بهم إلى مسرح التاريخ.

إن كل حكم على تروتسكي على أساس محاولة تفسير دوره في **التاريخ** ب"فكره". أي بوصفه فردا. هو حكم منطلق من أسس خاطئة. ونحن لا ننفي فائدة تكميل التحليل التاريخي بالبسيكولوجيا الفردية. بالرغم من أن كل ما نملكه في هذا المجال حتى اليوم لا يرقى إلى درجة اليقين القاطع. إن الصراع السياسي في الإتحاد السوفياتي في العشرينات. والصراع السياسي داخل الحركة الشيوعية العالمية في العشرينات و الثلاثينات. كان صراعا تقرر فيه مصير مئات الملايين من الكائنات البشرية. وتفسير نتائج صراع كهذا له أبعاد كهذه بشخصية هذا الفرد أو ذاك " س/ كان مصابا بعقدة الاضطهاد. ع/ كان مصابا بقرحة معدية. ي/ كان "يستخف بالدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية" ليس ابتعادا عن الماركسية فحسب. بل هو أيضا عين السماجة.

هنا بالتحديد يشكو فكر كراسو من ضعف جوهري. و "رده على إرنست ماندیل" لا يأتي بأي حجة جديدة في هذا المضمار. فهو يحدثنا مطولا عما يدور أو لا يدور في خلد تروتسكي ولينين. في هذه المرحلة أو تلك من مراحل النضال السياسي والاجتماعي في الإتحاد السوفياتي. بيد أنه لا يأتي بأي تفسير لمد الثورة وجزرها من منظور ميزان القوى الاجتماعية سواء في روسيا أم في سائر أرجاء العالم. وعندما يحاول كراسو بحياء وخجل أن يأتي بتفسير من هذا المنظور لمظهر طارئ من مظاهر المشكلة (المناقشة النقابية في 1921). فإنه لا يحجم حتى عن نفي وجود الطبقات الاجتماعية. وفي المقام الأول وجود

البروليتاريا. وفي شروط كهذه يصبح كل تاريخ علمي مستحيلا. ان عدم تفهم كراسو لماركسية تروتسكي يقوده إلى هجر الماركسية نفسها.

لينين وتروتسكي ونظرية الحزب

يعرب كراسو عن دهشته لأنه أمكن لنا أن نقول :" أن لينين. لا تروتسكي. هو الذي اقتبس إلى حد بعيد نظرياته في تنظيم الحزب عن المنظرين الاشتراكيين-الديموقراطيين الألمان والنمسويين". بيد أن الإعراب عن الدهشة ليس دليلا على العكس. وليس دليلا على العكس أيضا محاولة إرجاع نظرية لينين عن الحزب إلى فكرة الثوريين المحترفين.

إن كراسو ينسى على ما يبدو أن فكرة الثوريين المحترفين ليست مبدأ أساسيا في نظرية لينين عن الحزب. وإنما نتيجة فرعية لمبادئ أساسية أخرى. ولقد كان هو نفسه قد قال بسداد رأي في معرض حديثه عن أطروحة لينين الأساسية بصدد الحزب الثوري "ان الاشتراكية كنظرية لا بد أن تحمل إلى الطبقة العاملة من الخارج عن طريق الحزب الذي يضم الانتلجانسيا الثورية". إن هذه الأطروحة الأساسية هي عينها التي اقتبسها لينين. كما قلنا. عن فكتور آدلر و كارل كاوتسكي. ولو كلف كراسو نفسه مشقة الرجوع إلى المصادر التي أتينا بذكرها. لوجد نفسه مرغما على الاعتراف بأن العناصر الأساسية في نظرية لينين عن الحزب الثوري مستمدة فعلا من الاشتراكيين الديموقراطيين الألمان والنمسويين-الألمان في العقد الأخير من القرن الماضي.

لم يخف لينين ذاته أن نظريته عن الحزب كان مستوحاة من الاشتراكية-الديمقراطية الألمانية. وطبيعي أن لينين يبالغ عندما يقول بأنه مقتنع بأن صلة قربى إيديولوجية وثيقة للغاية تربطه بكاوتسكي والآخرين. فهو لا يتفوه بمثل هذا الرأي إلا في حمى الصراع بين الأجنحة. وبديهي أيضا أن لينين. عندما تطرق إلى هذه المشكلة مجددا بعد تجربة ثورة 1905. عبر عن تصور أرحب بكثير من التصور الذي عبر عنه في "ما العمل؟". ولا سيما فيما يتعلق بالعلاقات بين طليعة الحزب والطبقة العاملة. ولقد نوهنا بهذا كله في مقالنا الأول.

ونحن لا نريد أن نخرج عن الموضوع. إنما نلح على واقع أن التصور اللينيني عن التنظيم قبل 1917 كان أقرب إلى تصور الاشتراكية-الديمقراطية منه إلى تصور تروتسكي. والسبب واضح : فلقد كان لينين. شأنه شأن

الاشتراكيين الديموقراطيين. يلح على الدور المركزي الذي ينبغي على العمال **المنظمين** أن يلعبوه تجاه أولئك الذين هم غير منظمين. ولقد هون تروتسكي من أهمية هذا التنظيم. ولكنه. مثله في ذلك مثل روزا لوكسمبورغ. أدرك قبل لينين أن التنظيم ليس في حد ذاته ضمانة القدرة في قيادة الثورة. وأنه من الجائز أن يتحول حتى إلى فخ يحول بين الطبقة العاملة وبين التقدم على الطريق الثورة. لقد كان يتوجس شرا. وبنفاد نظر. من النزعة المحافظة التي قد ينساق إليها جهاز الحزب. وكل نظرية ماركسية عن الحزب تقصي وجهة النظر هذه جانبا دامغة إياها ب"النزعة السوسيولوجية" إنما تدلل على جهل مطبق بتاريخ الطبقة العاملة منذ 1914.

إننا نقول "منذ 1914" عن عمد. فما يفتقر إليه تحليل كراسو تمام الافتقار هو تقييم موقف لينين من الحزب والأممية الثانية. ذلك الموقف الذي حددته التجربة المأساوية التي عاشها بعد 4آب 1914. وليس من قبيل الصدفة أن ينطوي تحليل كراسو على هذه الثغرة. فهو يضرب صفحا عن كتابات لينين عن الاشتراكية-الديمقراطية. ليتحاشى بلا حرج ما أصبح منذ ذلك الحين حجر زاوية اللينينية: **الجمع بين نظرية عن الحزب وبين برنامج ونشاط ثوريين.** وإذا ما أسقط هذا التركيب من الحساب يصبح "تنظيم" الحزب لا مجرد قوقعة خاوية من منظور صراع الطبقات. بل قد يضحى ناقلا لقوى اجتماعية معادية. وحينما ينحي كراسو بعد ذلك باللائمة على تروتسكي لأنه حوَّل البرنامج إلى "صنم". ويعارضه ب"بنية الحزب التي كانت أساس فكر لينين". فإنه يفتري على تروتسكي ولينين معا. فمنذ أن التحق تروتسكي بصفوف البلاشفة. لم يفصل قط البرنامج عن بنية الحزب. كذلك لم يفصل لينين قط بعد 1914 بنية الحزب عن النشاط والبرنامج الثوريين: فهو قد استخلص الدرس من 4 آب 1914.

ولن نطيل على القارئ بتعداد جميع الأمثلة التي يدلل فيها تروتسكي بأفكاره و أفعاله. بعد آذار 1917. على أنه قد هضم نظرية لينين عن الحزب. وسنكتفي بشاهد واحد:

"ان الأقلية الفاعلة. التي تعزو إليها النظرية النقابية دورا قياديا وتضعها فوق المنظمات النقابية للجماهير البروليتارية. لا يمكن أن تظل بلا بنية. ولكن إذا كانت هذه الأقلية الفاعلة من الطبقة العاملة منظمة تنظيما سليما. وإذا كانت معززة بانضباط داخلي متناسب مع مصاعب العصر الثوري الكأداء. وإذا كانت مدعومة بذهب واف بالمرام. مذهب الثورة المصاغ صياغة علمية.

فآنذاك يمكن للحزب الشيوعي المسيطر على النقابات وعلى سائر أشكال الحركة العمالية. وله وحده. أن يطورها إيديولوجيا و أن يقود جميع أعمالها.

"... من هنا كانت الحاجة الماسة إلى خلق حزب شيوعي فرنسي يستوعب الجناح الثوري القائم أصلا من الحزب الاشتراكي والفرع الثوري من الحركة النقابية الفرنسية. وعلى الحزب أن يخلق جهازه الخاص به. المستقل مطلق الاستقلال. الممركز صارم المركزة. والمنفصل عن الحزب الاشتراكي الحالي وعن " الإتحاد العام للشغل" والنقابات المحلية.

"إن الطريق الذي لا مفر من السير فيه هو البناء الفوري لحزب شيوعي ممركز. وإنشاء صحف يومية في المراكز الرئيسية للحركة العمالية تكون مهمتها (بعكس الصحف الموجودة الآن) لا القيام بدعاية مجردة. بل بث التحريض الثوري المباشر ونقل التعليمات السياسية المتعلقة بنضال الجماهير البروليتارية" (حول مؤتمر الكومنترن القادم".22 تموز1920).

إنه لمن الصعب. حتى على نيقولا كراسو. التمييز بين النظرية التي عرضها لينين في "ما العمل؟" وبين هذا التصريح الذي أدلى به تروتسكي في عام 1920.

اختيارات 1923

يرمي كراسو إلى تصوير تروتسكي و كأنه أسطورة رومانسية ورمز. ولكن حجر عترة هذه الأطروحة يكمن في البرنامج البديل: الدقيق والعيني. الذي اقترحه تروتسكي على الحزب البلشفي الروسي وعلى الأممية الشيوعية معا بين 1923 و1933. و"التناقض" الذي خيل لكراسو أنه واجده بين نظرية الثورة الدائمة (كما يؤولها) وبين النضال الذي خاضه تروتسكي في سبيل التعجيل بتصنيع الإتحاد السوفياتي لا يقوم على أساس من الصحة. وما يحسبه كراسو تناقضا منطقيا (وفي هذا دليل على التناقض المنطقي الذي وقع فيه هو نفسه في "تفسيره" لتروتسكي) ليس في الواقع إلا علاقة منطقية صميمة: الرغبة الواعية في تعزيز قوة البروليتاريا على الصعيدين القومي والأممي.

ولا يحجم كراسو في "رده على إرنست ماندیل" على الإيغال في الشطط. فينكر بلا تحرز أن يكون تروتسكي والمعارضة اليسارية قد قدما برنامجا بديلا لسياسة ستالين في العشرينات. وتدعيما منه لهذا الزعم لا يتورع عن تحريف التسلسل الزمني لبعض الوقائع التاريخية : فهو يقول أن البروليتاريا قد تقلصت

أعدادها بمقدار الثلثين في عام 1921. وأن سياسة التعبئة التدريجية لهذه البروليتاريا وإعادة تسييسها في 1923-1924 كانت سياسة لا واقعية. وأن مقترحات تروتسكي لتسريع التنمية الصناعية لم تكن "بصورة من الصور وسيلة ناجعة للخروج من وضع 1928 الاقتصادي اليائس ولتحطيم الحصار الحقيقي الذي كان الفلاحون الكولاك قد فرضوه على المدن". إن المرء ليقف مشدوها أمام مثل هذا "المنطق".

لنفترض أن تعداد البروليتاريا قد تقلص بنسبة الثلثين في 1921 (والشك في ذلك وارد وسوف نحاول أن نبرهن مرة ثانية على أن هذه الأرقام مبالغ فيها جدا). ولكن من المؤكد أن البروليتاريا في عام 1923. هذا إن لم نشأ أن نتكلم عن عام 1926. ما عادت "مفتتة مشتتة" كما يفترض كراسو. فالإحصائيات السوفياتية الرسمية التي يوردها صولومون شفارتز تشير إلى أن عدد الأجراء. الذي ارتفع بين 1897 و1913 من 7,9 ملايين إلى 11,2 مليونا. قد تدنى إلى 6,6 ملايين 1922 و1923. ثم عاود الارتفاع بسرعة إلى 7,4 ملايين في 1923-1924.وإلى 10,2 ملايين في 1924-1925. وإلى 10,9 ملايين في 1925-1927. وإلى 11,6 مليونا في 1927. وفي ميدان الصناعة الثقيلة انخفض عدد العمال من 2,8 مليون في 1913 إلى 1,7 مليونا في 1922-1923. ليعاود صعوده بسرعة إلى 1,8 مليون في 1923-1924. و2,2 مليون في 1924-1925. و 2,7 مليون في 1925-1926. و2,8 مليون في 1926-1927. و3,1 ملايين في 1928. أما عمال البناء فقد تزايد عددهم بسرعة أكبر أيضا. إذ انتقل من 300000 في 1923-1924 إلى 500000 في 1926-1927 وإلى 700000 في عام 1928. ونظرا إلى أن أرقام ما قبل الحرب كانت تشتمل على نسبة كبيرة من أجراء البيوت (أكثر من مليونين) و نظرا إلى أن عدد الخدم قد سقط إلى 200000 في العشرينات. لهذا يمكننا القول أن البروليتاريا الصناعية بالمعنى الحرفي للكلمة كانت أكثر تعدادا في عام 1926 منها في أعوام ما قبل الثورة(1). هكذا نجد أنفسنا بعيدين حقا عن تلك البروليتاريا "المفتتة المشتتة".

ولكن على فرض أن البروليتاريا قد تقلص تعدادها فعلا "بنسبة الثلثين في 1921". فإن الأرقام التي أوردناها تشير بلا لبس إلى أن البروليتاريا كانت في سبيلها بين 1921 و1928 إلى إعادة التكون عدديا واقتصاديا واجتماعيا. ولا يستطيع أحد أن ينفي أن طبقة اجتماعية تنتج أكثر من 60 بالمئة من الدخل القومي(كما كانت الحال في عام 1926) لهي طبقة تمثل قوة اجتماعية حقيقية.

ولكننا نحب أن نذكر كراسو بأن تروتسكي لم يقترح بأن يعاد على الفور إلى الطبقة العاملة دورها القيادي في الدولة والاقتصاد في عام 1921. في وقت كانت تشكو فيه من ضعف اقتصادي واجتماعي كبير. ذلكم هو الخطأ السياسي الذي ارتكبته المعارضة العمالية وذلكم هو موقفها اللاواقعي الذي رفضه تروتسكي. فحتى تستعيد الطبقة العاملة دورها الطبقي السياسي القيادي كان لا بد أن تتوفر الشروط التالية : استئناف النشاط الاقتصادي (والصناعي) وإعادة فتح المصانع وبعث الطبقة العاملة. ولهذا أيد تروتسكي بحزم السياسة الاقتصادية الجديدة. كما أيد منح الأولوية لمشكلات البعث الاقتصادي.

ولكن هذه كانت بداية تطور ليس إلا، فمنذ أن استأنف الاقتصاد مسيرته، زادت الأجور، وارتفع عدد الأجراء، وصار دورهم في الاقتصاد حاسما بحكم نمو الإنتاج الصناعي، وآنذاك توفرت شروط بعث سياسي للبروليتاريا. وإنما في تلك المرحلة بات الحزب قادرا على عرقلة ذلك الانبعاث السياسي أو تسريعه. ولقد كان برنامج المعارضة اليسارية يرمي إلى تسهيل ذلك الانبعاث باقتراحه إلغاء البطالة وتسريع التصنيع وتوسيع نطاق عمل الديمقراطية السوفياتية وتشجيع الجماهير الكادحة على التعبير عن ذاتها وعلى العمل من تلقاء نفسها وتعزيز فرص نجاح الثورة الأممية التي لا بد أن تؤثر بدورها على العمال السوفياتيين فتعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم وروحهم النضالية.

لقد بذلت الفئة الحاكمة كل ما في وسعها لتحد من روح البروليتاريا النضالية ومن تطلعها إلى العمل والمبادأة. فتركت البطالة تضرب أطنابها، وجردت "السوفييتات" تدريجيا من كل دور هام في تسيير الدولة والاقتصاد، وصفت البقية الباقية من الديمقراطية العمالية خارج الحزب وكذلك التقاليد الديمقراطية داخل الحزب نفسه. تلكم هي المحصلة الحقيقية.

عندما يكتب كراسو :" هنا هي عقدة المشكلة : لا "سلبية" الطبقة العاملة (كما يقول ماندیل). أي الشروط الذاتية، وإنما انحلالها وتفتتها، أي البنية الموضوعية". فإنه يلخص المشكلة تلخيصا ممتازا. ولكنه يأتي في الوقت نفسه بجواب ضمني يقوض أطروحته من أساسها. فمن الواضح أنه ليس في مستطاع أحد أن يزعم أن "الانحلال" و"التفتت" كانا يمثلان بنية موضوعية بين 1923و1928 في وقت كان فيه المردود الصناعي قد أدرك وتجاوز أرقام ما قبل الثورة. والحق أن **الإمكانية الموضوعية** للتغلب على "الشروط الذاتية" كانت قائمة بعد 1923. وإذا كانت هذه النتيجة قد ظلت عصية المنال، فإن

تفسير ذلك لا نجده إلا في الدور الذي لعبه الحزب آنذاك. وأي تأويل غير هذا التأويل إنما هو بمثابة "استخفاف بالدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية".

أما بصدد برنامج المعارضة اليسارية الذي دعا إلى تمويل التوظيفات عن طريق ضريبة خاصة على الفلاحين الموسرين وتقليص نفقات الدولة. فإن كراسو يخيّل إليه أن من واجبه أن يبدي هذا التعليق :" إن تمويل التنمية عن طريق تقليص نفقات الدولة هو الحلم الطوبائي لكل بلد متأخر". وفي وسعنا أن نقول أيضا قياسا على ذلك أن القيام بثورة اشتراكية ناجحة وبناء دولة سوفياتية في قطر متأخر هو "حلم طوبائي". ومثل هذا التصور سيحظى بتأييد العديد من المناشفة، قدامى أو محدثين. والحق أننا لنتساءل عما إذا كان قرأ في يوم من الأيام كتاب لينين "الدولة والثورة" وتعليقاته الوافية عن "دولة قليلة الكلفة".بل عما إذا كان قد قرأ للينين أي نص اقتصادي آخر. إن لينين الذي كتب هذا كله كان بلا ريب "تروتسكيا رومانسيا" لا يجوز الخلط بينه وبين لينين "الواقعي" الذي ما كان له من شاغل غير "بنية التنظيم". ولم لا نقول أيضا أن مشروعه كان في أغلب الظن برسم انكلترا أو ألمانيا. لا برسم روسيا المتخلفة؟

إن ضريبة تفرض على الفلاحين الموسرين ليست من الطوبائية بشيء. فهذا بالتحديد ما حاولت عدة دول عمالية أن تحققه بعد تلك التجربة المريرة الباهظة التكاليف التي كانت حصيلة سياسة ستالين الزراعية. و ماوتسي تونغ نفسه، الذي لا سبيل إلى الشك في "واقعيته"، دعا إلى تطبيق إجراءات من هذا القبيل. وليس من "الطوباوية" بشيء أيضا محاولة تقليص نفقات الدولة (التي يذهب جزء منها هباء وتبذيرا في الدول المتخلفة) عن طريق فرض رقابة من القاعدة عليها وعن طريق تحويل عدد متعاظم من الوظائف العامة إلى أيدي الفلاحين والعمال. ولقد تولى وضع التدابير التي اقترحها برنامج المعارضة اليسارية في هذا المضمار بعض من ألمع اقتصاديي الإتحاد السوفياتي. ومن بينهم بريو براجنسكي وبياتاكوف اللذان أوكلت إليهما فيما بعد مهمة إنشاء الصناعة الثقيلة إبان الخطة الخمسية الأولى. وليس من الجد اتهام هؤلاء الخبراء بالأحلام الرومانسية.

والواقع أن الأرقام التي ذكرها برنامج المعارضة اليسارية تتطابق والأرقام التي قررها كريز خانوفسكي في خطته الأولى لتصنيع البلاد في العشرينات. وهي تتطابق أيضا مع ما جرى فعلا إبان الخطة الخمسية الأولى.

والفارق الوحيد هو أن التضحيات الاستهلاكية بموجب برنامج المعارضة اليسارية كان يجب أن تمتد على عشر سنوات بدلا من أربع سنوات ونصف

سنة. وكان من الممكن بالتالي تحميل الفئات المحظوظة من السكان لا العمال وصغار الفلاحين عبء تلك التضحيات.

ولو سارت الأمور على هذا النحو لما نجمت محاذير تذكر بالنسبة إلى المعدل الوسطي للإنتاجية (مردود التوظيفات). في حين أن تضييق مجال الزمن بالنسبة إلى التضحيات كانت له آثار مفجعة على تلك الإنتاجية.

وأخيرا فإن الخسائر كانت ستكون أقل بكثير لو وضع برنامج المعارضة اليسارية موضع تطبيق. بينما ضاعفت خطة ستالين للتصنيع تلك الخسائر بعشرة أمثال. ولقد انخفض إيراد التوظيفات انخفاضا ماحقا، الأمر الذي أوجب تعيين مئات الألوف من المراقبين ورجال الشرطة لفرض"الانضباط" على السكان، ولقد كانت أجورهم تبذيرا محضا من وجهة نظر النمو الاقتصادي.

ومن الممكن القول من هذا المنظور أن وتيرة النمو الاقتصادي ومستوى استهلاك المنتجين ودرجة تحقق الديمقراطية مترابطة فيما بينها ترابطا وثيقا. ولكن على نحو معاكس لذاك الذي يدافع عنه مداحو ستالين (على نحو ما يفعل كراسو). فتعميق الديمقراطية السوفياتية وتطوير استهلاك المنتجين ما كانا إلا ليزيدا مردود التوظيفات ويحدا من الاستهلاك غير المنتج ويسرّعا النمو الاقتصادي بدلا من تأخيره.

ان عامل الزمن، الذي يضرب كراسو عنه صفحا في حجاجه. هو في الواقع عامل حاسم الأهمية. ولا مندوحة من الكلام عن عامل الزمن أيضا عندما يؤكد كراسو، بشيء من البلاهة، أن السياسة الاقتصادية البديلة التي اقترحها تروتسكي في عام 1923 ما كانت تمثل علاجا شافيا للحصار الذي فرضه الكولاك على المدن في عام 1928. فمن البديهي أن ذلك كان مستحيلا عليها، لأن السياسة البديلة كانت ترمي قبل كل شيء إلى الحيلولة دون قيام وضع كذاك الذي قام في عام 1928.

لقد وجه تروتسكي وأنصاره منذ عام 1928 تحذيرا مفاده أن تطور الإنتاج الصغير سيؤدي لا محالة إلى تفاوتات في المناطق الريفية. وقد صرح بأن نتيجة ذلك ستكون تركيز بيع الفائض الغذائي بين أيدي الفلاحين الموسرين. الأمر الذي سيعزز سلطانهم السياسي في القرى. ولقد أنكر ستالين وبوخارين ذلك شديد الإنكار، زاعمين أن ازدهار الإنتاج الصغير سيكون في صالح الفلاحين المتوسطين لا الأغنياء. وحيثما توقع تروتسكي ولادة صراع طبقي، تنبآ هما بقيام انسجام اجتماعي. هكذا اقترحا "دمج" الزراعة الخاصة ب"بناء

الاشتراكية" إلى درجة أرادا معها تمويل توسيع الصناعة الاشتراكية عن طريق بيع سندات الدولة إلى الملاك الزراعيين.

لقد نبذ تروتسكي هذا التصور الحالم و الطوبائي عن الانسجام الاجتماعي. وحذر الحزب و البروليتاريا من الخطر المتمثل بالكولاك قبل سنوات عدة من ظهور نذره. ولقد أمكنه أن يتنبأ بدقة بالشكل الذي سيتلبسه هذا الخطر :رفض تسليم الأغذية إلى المدينة ما لم تسلم هذه المزيد من السلع الصناعية إلى القرية. كما تنبأ بالنتائج السياسية التي لا بد أن تنجم عن هذا "الإضراب عن التسليم". وقد اقترح كبديل عن سياسة ستالين وبوخارين التي كانت تشجع تركز فائض الأغذية بين أيدي الكولاك سياسة واقعية : تصنيع متسارع من جهة أولى بفضل ضرائب تفرض على الكولاك. وتجميع تدريجي للزراعة من الجهة الثانية مع إنشاء مزارع تعاونية تعتمد واسع الاعتماد على الوسائل الميكانيكية وتجتذب إليها الفلاحين الفقراء لأن المدخول وشروط الحياة فيها ستكون أفضل منها في مزارعهم البائسة التي تعتمد على وسائل بالية أكل عليها الدهر وشرب.

تسريع التصنيع على نحو يرسي أسس زراعة ممكننة بالتدريج. و إجراءات تفاضلية داخل الطبقة الفلاحية لا لصالح الفلاحين الأغنياء وإنما على حسابهم. ودخول الفقراء على نحو متسارع إلى مضمار الحياة السياسية النشيطة في المدن والأرياف على حد سواء. وبالتالي إرساء أسس الديمقراطية: ذلكم هو فحوى برنامج تروتسكي. ومهما أكد كراسو بأن هذا البرنامج "لا يقدم حلا سياسيا للمشكلة الفلاحية"، فإنه هو نفسه لا يقدم من دليل على هذا الحكم المدهش.

طبيعة البيروقراطية السوفياتية

عبثا يصول كراسو ويجول حول محور أهم مشكلة اجتماعية في الإتحاد السوفياتي في العشرينات، أعني مشكلة البيروقراطية، لأنه لا يقر بأن البيروقراطية تشكل كتلة اجتماعية مستقلة بذاتها. وهذا ما يحُول بينه وبين أن يرى في صراعات الحزب الشيوعي السوفياتي الداخلية في تلك الفترة غير مسألة سلطان سياسي وبسيكولوجيا فردية غير متلائمتين.

يكتب كراسو قائلا :" إن لينين لم يطرح قط مشكلة النضال ضد البيروقراطية طرحا مثاليا، ولم يقع قط في أحابيل الرومانسية السياسية التي لا

تقبل إلا ب"أحد الأمرين"، ولم تكن المسألة في نظره مسألة معرفة ما إذا كان من الواجب أو من غير الواجب تصفية البيروقراطية. فقد كان يعرف حق المعرفة التناقضات التي لا حل لها والتي تسم بميسمها السياسة الداخلية والخارجية على حد سواء... ولم يكن هدف لينين انتصارا كاملا ومستحيلا على النزعة البيروقراطية، وإنما كان بالأحرى من أنصار معالجتها وتصحيحها قدر الإمكان".

إن البيروقراطية تولد من تقسيم اجتماعي للعمل لم تحكم السيطرة عليه، وهي تنجم عن نقص في تطور القوى المنتجة وعن نقص في المستوى التقني والثقافي للطبقة العاملة. ولهذا لا يمكن إلغاؤها بالمراسيم، كما لا يمكن إلغاء الإنتاج البضاعي أو العملة أو الدولة. إنما الممكن فقط تقليص أهميتها إبان عملية بناء مجتمع بلا طبقات. وبهذا المعنى يمكن القول أن المسألة ليست مسألة معرفة ما إذا كانت البيروقراطية "ستصفى أو لن تصفى" فهذه عين البداهة. أما إلغاء البيروقراطية إلغاء تاما وفوريا، أي تصفية جميع موظفي الدولة والحزب والنقابات المتفرغين. وجميع أولئك الذين يسيِّرون الاقتصاد على سبيل الوظيفة الدائمة وبصورة منفصلة عن اليد العاملة المنتجة. وجميع المثقفين المنفصلين عن العمل المنتج. الخ... فهذا أمر مستحيل غداة انتصار الثورة الاشتراكية، وهو من رابع المستحيلات أيضا في قطر متخلف.

لقد كان تروتسكي، مثله في مثل ذلك مثل لينين، يعرف هذا كله، وهو لم يقترح في أي نص في يوم من الأيام أي خطة ل"إلغاء البيروقراطية إلغاء تاما وفوريا". ولكن أن يدرك المرء أن البيروقراطية شر ضروري شيء، وأن يستحسنها لأنها ضرورية شيء آخر. وفي وسع المرء أن يقول :" إننا نتغاضى عن اللامساواة بقدر ما تساعدنا على إدراك المساواة بسرعة أكبر. ولكننا لن نغض الطرف أثناء ذلك عن الفساد الذي سينجم عن تلك اللامساواة لا محالة. وسنعمل على تقليص نطاقها بكل الوسائل المتاحة لنا". هذا شيء، وشيء آخر أن يعلن بتهور أن المساواة "مثل أعلى بورجوازي صغير" وأن "الواقعية" تقضي بتعزيز التفاوتات الاجتماعية. وزبدة الكلام أن ثمة فارقا كبيرا بين انتهاج سياسة تخفف تدريجيا من ثقل البيروقراطية وسلطتها وبين انتهاج سياسة تزيد من ذلك الثقل وهذه السلطة. إن الموقف الأول هو موقف أنصار الثورة البروليتارية من لينين إلى تروتسكي. أما الثاني فهو موقف الناطقين بلسان البيروقراطية من ستالين إلى بريجينيف. وإننا لنتسائل أين يقف كراسو؟

إن القول بأن لينين ما كان يسعى ألا إلى إدخال بعض الملطفات على البيروقراطية لافتراء على ذلك الثوري الكبير، فقد كان منتبها للخطر الهائل الذي تمثله البيروقراطية في مرحلة بناء مجتمع اشتراكي. ولئن كان مدركا استحالة تصفية تلك البيروقراطية دفعة واحدة، فإنه ما كان يوفر جهدا لتقليص وزنها بقدر المستطاع. وليست المسألة مسألة إيجاد ملطفات، وإنما إيجاد القوى الاجتماعية والوسائل السياسية القمينة، بقدر المستطاع، بالحيلولة بين الدولة العمالية المشوهة بيروقراطيا وبين الغرق في الانحطاط البيروقراطي ووقوعها ضحية سرطان يلتهم البقية الباقية من أجهزتها السليمة(2). والقوة القمينة بتقليص وزن البيروقراطية تدريجيا لا يمكن أن تكون غير البروليتاريا بممارستها عددا متزايدا من الوظائف في إدارة الدولة والاقتصاد.

لم يكن موقف تروتسكي من مشكلة البيروقراطية مختلفا اختلافا جوهريا عن موقف لينين. وهو لم يعلل نفسه قط بالأوهام بصدد إمكانية إلغاء البيروقراطية دفعة واحدة، ولقد سعى إلى تقليص آثارها الضارة على المجتمع السوفياتي وإلى اتخاذ تدابير كانت كفيلة بتسريع عملية تقليص نفوذ تلك البيروقراطية. والشيء الوحيد الذي يمكن أن يقال هو ان رد فعله إزاء ذلك الخطر الداهم كان أبطأ من رد فعل لينين. وإن كان قد أدرك قبل لينين الجذور الاقتصادية للسلطة الاقتصادية علاوة على الجذور الاجتماعية والسياسية والثقافية(3). بيد أن لينين و تروتسكي على حد سواء فهما أن البيروقراطية كتلة اجتماعية وأن من الواجب الأول هو الحيلولة بينها وبين النمو. ولم يفهم غالبية "البلاشفة القدامى" شيئا من هذه المشكلة. وغلطتهم الإيديولوجية هي التي أوردتهم موارد التهلكة.

وكراسو يقع في هذه الغلطة من جديد. فالفكرة القائلة أن الحزب كان قادرا على تحييد البيروقراطية هي وهم راود "البلاشفة القدامى" أيضا. ولا مفر، في حال ازدياد سلبية البروليتاريا، من أن يصاب الحزب نفسه بداء البيروقراطية، فيصبح بالتالي ناقلا للسلطة البيروقراطية لا عقبة تعرقل تقدمها.

عودة إلى مشكلة الاشتراكية في بلد واحد

في ردنا السابق على كراسو شرحنا بالتفصيل أخطاءه فيما يتعلق بمسألة "الاشتراكية في بلد واحد" و"الثورة الدائمة". وأوضحنا سبب عجزه، حتى في يومنا هذا، عن إدراك النقطة التي يدور حولها النقاش : حول الهدف النهائي

لسيرورة بناء مجتمع بلا طبقات، وليس بصورة من الصور حول بداية هذه السيرورة.

ولا يحاول كراسو ولو مجرد محاولة أن يفند تحليلنا، إنما يكتفي بشيء من السخرية من "تبسيطنا" لمفهوم الثورة الدائمة. فاستنادا إلى جملتين مبتورتين من كتاب تروتسكي عن "الثورة الدائمة" يزعم أن هذا الأخير كان يتوجس خيفة من "انهيار الإتحاد السوفياتي اقتصاديا وعسكريا". وبديهي أننا لا نستطيع أن نحمل هذا النوع من الحجاج على محمل الجد.

إن كراسو لا يستشهد بأي نص لتروتسكي تأييدا لتأويله الخاطئ لنظرية الثورة الدائمة التي يرى فيها دعوة إلى انتفاضات متواقتة في عدد من الأمكنة. وبالمقابل نستطيع نحن أن نستشهد بعدة مقاطع ينبذ فيها تروتسكي بلا لبس تأويلات صبيانية من شاكلة تأويلات كراسو. وإليكم على سبيل المثال هذا الرد على بوخارين. الذي كتب قبل أربعين عاما والذي يبدو مع ذلك أنه يرد مقدما على كراسو :

" طبيعي أني لم أشاطر قط بوخارين تصوره عن نظرية"الثورة الدائمة". ذلك التصور الذي لا يترك من مكان في الصيرورة الثورية لأي توقف ولأي مرحلة ركود أو تراجع أو انتقال. بل على العكس من ذلك تماما: فقد ناضلت، منذ أوائل أيام اوكتوبر، ضد هذه الصورة الكاريكاتورية للثورة الدائمة.

" عندما تكلمت، كما فعل لينين، عن التناقض بين روسيا السوفياتية والعالم الإمبريالي. كان الفكر يمتد بي إلى المسيرة الإستراتيجية الطويلة لا إلى الأحداث الصغيرة العارضة التكتيكية. وبالمقابل فإن بوخارين، قبل أن يصبح نقيض نفسه، قد أذل على الدوام تصور ماركس عن الثورة الدائمة إلى كاريكاتور سكولاني. لقد كان بوخارين في مرحلة "شيوعية الحرب" ينزع إلى التفكير بأن الثورة لا تسمح لا بفترات تراجع ولا بتسويات مؤقتة مع العدو. وبعد مضي زمن طويل على مسألة صلح بريست-ليتوفسك (التي كان موقفي منها مختلفا جذري الاختلاف عن موقف بوخارين) نصب بوخارين نفسه. بالتفاهم مع الجناح اليساري المتطرف من الكومنترن، مدافعا عن أيام آذار 1921 في ألمانيا. وزعم أن البروليتاريا الأوروبية إذا لم "تشتعل" حماسة وأنه إذا لم تقع انفجارات ثورية جديدة. فإن السلطة السوفياتية ستواجه خطر دمار أكيد. ولقد كنت أدرك أن الخطر الذي تواجهه السلطة السوفياتية خطر واقعي. ولكن هذا لم يمنعني من أن أخوض. جنبا إلى جنب مع لينين. نضالا مستميتا في المؤتمر الثالث ضد ذلك التحريف "الانقلابي التآمري" لتصور ماركس عن

الثورة الدائمة. وفي ذلك المؤتمر الثالث كررنا على مسامع اليسار الناقد الصبر عشرات المرات :" لا تكونوا متسرعين أكثر مما ينبغي لإنقاذنا. ففي ذلك لن يكون إلا دماركم. وبالتالي دمارنا. سيروا بانتظام في طريق النضال من أجل السلطة. نحن بحاجة إلى انتصاركم. لا إلى نضال تخوضونه في شروط غير موائمة. إننا سنصمد داخل الجمهورية السوفياتية بمساعدة السياسة الاقتصادية الجديدة وسنتقدم. ومازال أمامكم متسع من الوقت لتساعدونا في الوقت المناسب. حاشدين قواكم ومستغلين الظروف المواتية"(4).

لقد كتبت هذه السطور في حزيران 1928. وقد أكمل تروتسكي أهجيته عن الثورة الدائمة في تشرين الأول 1928. إذن فهذان النصان متعاصران عمليا. بيد أن كراسو يتشبث. بالرغم من هذه النصوص الجازمة. بتأويله لنظرية تروتسكي في الثورة الدائمة زاعما أنها مطابقة لنظرية بوخارين. أي أنها عبارة عن تصور يفترض أن الانتفاضة يجب أن تكون متصلة ومتواقتة زمنيا في كل مكان (وهو تصور ينبذه تروتسكي نبذا صريحا قاطعا). فهل هذا من قبيل الجهل أم من قبيل سوء النية الفكرية؟

وفي وسعنا أن نطرح السؤال نفسه عندما نرى كراسو يتخبط في محاولات يائسة للتوكيد بأن تروتسكي قد نبذ "نظرية الاشتراكية في بلد واحد " بحجة أن انهيار النظام السوفياتي محتوم إما بنتيجة ضغط الاقتصاد العالمي وإما بسبب تدخل أجنبي إذا لم تنتصر الثورة العالمية بسرعة. ولنترك هنا أيضا الكلمة لتروتسكي نفسه في تقديمه لكتاب "الثورة الدائمة" :

"ان دولة عمالية منعزلة لها برنامج واقعي لا تستطيع أن تحدد هدفا لنفسها أن "تستقل" تمام الاستقلال عن الاقتصاد العالمي ولا أن نشيد مجتمعا اشتراكيا قوميا "في أقرب أجل". وليس الهدف بلوغ سرعة قصوى. بل سرعة مثلى. أي سرعة تعزز. في سياق الشروط الاقتصادية الداخلية والخارجية. موقع البروليتاريا. وتهيء على المستوى القومي المجتمع الاشتراكي الأممي القادم. وتحسن في الوقت نفسه وبوجه خاص مستوى حياة البروليتاريا وتوثق عرى وحدتها مع الجماهير الريفية غير المالكة. إن هذه الأهداف يجب أن تظل متقدمة على غيرها طوال المرحلة التمهيدية. أي إلى أن تنتصر الثورة في البلدان المتقدمة فتحرر الإتحاد السوفياتي من عزلته الراهنة"(5).

ليس في هذا الكلام أثر من تشاؤم تاريخي. أو من فكرة حتمية انهيار الإتحاد السوفياتي التي نسبها جناح المعارضين خبثا إلى تروتسكي والتي يكررها كراسو بلا ترو. بل إننا نلاحظ فيه، على العكس. تفهما صحيحا للصراع

الطبقي الذي لا يعرف الهدنة إلا بشكل عارض سواء عل الصعيد القومي أم على الصعيد الأممي ولا يعرف "تعايشا سلميا" دائما. كما نلاحظ فيه تفهما صحيحا للمهمة الأساسية للبروليتاريا العالمية. تلك المهمة التي لا تتمثل في "الحيلولة" دون شن حرب عدوانية عالمية على الإتحاد السوفياتي فحسب. بل أيضا في العمل على توسيع النطاق الأممي للثورة. وبعبارة أخرى. ان كل هزيمة فادحة تلحق بالطبقة العاملة في العالم (كاستلام هتلر للسلطة) تجعل تلك الحرب العدوانية العالمية محتومة أكثر فأكثر.

هذا هو **جوهر**"نظرية الاشتراكية في بلد واحد" وموقف البيروقراطية السوفياتية المحافظ من الثورة العالمية. فقد كانت نظرية "الاشتراكية في بلد واحد" تصورا استراتيجيا يريد أن يكون "الدفاع عن الحصن" المهمة الأساسية للحركة الثورية العالمية. وأن تكون سياسة الأحزاب الشيوعية القومية بحكم هذا "الدفاع" تابعة لتقلبات الدبلوماسية السوفياتية. ومعروفة هي المراحل التالية المحزنة من التاريخ. بدءا من المؤتمر النقابي الإنكليزي-السوفياتي في 1925-1926 إلى سياسة "التعايش السلمي" اليوم : "الجبهات الشعبية". الانعطاف المباغت بعد توقيع حلف هتلر- ستالين. المرحلة الجديدة التي أعقبت مهاجمة هتلر للإتحاد السوفياتي. مرحلة "البراودرية"(6) القصيرة الأمد. الحرب الباردة والمرحلة الجدانوفية. الكومنفورم وحله. الخ.

إن ما ارتآه تروتسكي، و ما نرتئيه معه، هو أن انصياع الأحزاب الشيوعية القومية لمقتضيات الدبلوماسية السوفياتية المرهونة بالظروف. يلحق الضرر بالإتحاد السوفياتي و بمصالح الثورة العالمية **معا**.

إن الدفاع العسكري عن الإتحاد السوفياتي ما كان بالتأكيد يتطلب السماح لتشانغ كاي شيك بسحق الحركة العالمية الصينية في عام 1928. والسماح لهتلر بالاستيلاء على السلطة في ألمانيا. وإنهاء الإضراب العام في فرنسا عام 1936 مقابل بعض الإصلاحات الاقتصادية. وسحق فرانكو للثورة الإسبانية. وخنق الحركة العاملة في جميع أرجاء أوروبا تقريبا.

يؤكد كراسو، دونما أساس من الصحة :" أن سياسة ستالين ما كانت تقرر حياة الحركة الثورية العالمية وموتها. وإنما كانت تقرر بالأحرى مواقف الدولة السوفياتية و أعمالها الحذرة والمحافظة". ولكنه ينسى على حين غرة ما كان قد كتبه قبل بضع صفحات حول طبيعة تلك الدولة. هل كانت تلك "النزعة المحافظة" تعكس مصالح الطبقة العاملة؟ إذا كان الجواب بالنفي. أفلا تكون تلك النزعة نتيجة التقدم الذي حققه "التشويه البيروقراطي" الذي حل بتلك

الدولة العمالية متجاوزا هواجس لينين الأكثر تشاؤما التي عبر عنها في 1920-1921 ؟ ولئن كان كراسو يتصور أن المسألة هي محض مسألة بسيكولوجيا **فردية** (حذر ستالين ونزعته المحافظة). فإن الماركسي مطالب بالأحرى بالبحث عن تفسير **اجتماعي**.

الكومنترن والثورة العالمية

تثور ثائرة كراسو حين نؤكد أن ستالين والبيروقراطية السوفياتية يتحملان مسؤولية جسيمة عن الهزائم الماحقة التي منيت بها الثورة العالمية بين 1923 و1943. والحجة الواهنة التي يختلقها هي اتهامنا بنزعة ماركسية بدائية تزعم أن" الكرملين مسؤول عن كل قمع للاستياء الاجتماعي وعن كل انتصار للثورة المضادة". وبديهي أنه لا يجد صعوبة بعد ذلك في القول بأن هذا التصور الذي ينسبه إلينا "يتنافى والتقييم العقلاني للتاريخ العالمي".

والواقع أننا لم نؤكد شيئا من هذا القبيل. ولا تروتسكي. فإرجاع جميع العوامل التي تتحكم بتاريخ العالم إلى عامل واحد منعزل يلعب فيه فرد واحد دورا حاسما أمر يتنافى حتى مع الماركسية البدائية. ناهيك عن الماركسية المتطورة (وكيف يمكن بالأصل عزو مثل هذا التصور إلى تروتسكي الذي تنسب إليه في الوقت نفسه نزعة سوسيولوجية مزعومة. إن هذا لتناقض يشق عل كراسو أن يجد له حلا.

إن ما نؤكده، و ما أكده تروتسكي، ولينين من قبله، هو أن دور الحزب في توجيه الأحداث يمكن أن يكون حاسما إذا ما نشأت أوضاع ثورية. هكذا كانت الحال بكل تأكيد في روسيا. و كراسو لا يستطيع أن ينفي ذلك. أم تراه يستخف ب "الدور المستقل ذاتيا للمؤسسات السياسية" إلى درجة قد لا يحجم معها عن التوكيد بأن ثورة أوكتوبر كانت ستنتصر حتى لو لم ينتهج الحزب البلشفي سياسة موائمة؟

وغني عن البيان أن الأوضاع الثورية لم تنشأ في العالم في العديد من الأحوال في أعقاب الصراعات الطبقية بين 1923 و1943. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن ساسة موائمة ينتهجها حزب ثوري كانت ستساعد حتى في هذه الحال على تسريع التطور وعلى تحويل الأوضاع ما قبل الثورية إلى أوضاع ثورية. ولكن لنقف مليا عند الحالات التي قامت فيها فعلا أوضاع ثورية أو كان

يمكن أن تقوم فيها مثل هذه الأوضاع في وقت وجيز من الزمن. ولسوف نأخذ مثالين ردهما كراسو بخفة لا يحمد عليها.

إن مثالنا الأول هو ثورة تموز 1936 الإسبانية. لقد كان حريا بكرا سو أن يقرأ لا بضعة كتب حول هذا الموضوع فحسب. بل أيضا صحف تلك المرحلة. ولو فعل لعلم أن العمال هبوا في تموز1936 ليردوا على التمرد العسكري الذي قام به الجنرالات الفاشيون. ولا طلع على ما أفلحوا في إنجازه بلا سلاح تقريبا في معظم مدن إسبانيا وفي جميع المراكز الصناعية. وهذا في أيام معدودات. فقد استولوا على الثكنات والمصانع. وتسلحوا. وشرعوا بتنظيم إنتاج صناعي وزراعي من نمط اشتراكي.

إن المسألة تتلخص في نظر كراسو في هذا الإسفاف الذي يريد نفسه "واقعيا" : "ما كان الشيوعيون الاسبان يمثلون آنذاك سوى أقلية ضئيلة من القوى الجمهورية التي ما كانت تملك أصلا هي نفسها فرصا كبيرة في كسب الحرب بعد أن تبلور ميزان القوى العسكرية في عام 1936". وهو لا يدرك أنه بذلك يرتكب ما يسميه المناطقة بالمصادرة على المطلوب أي يفترض ما كان ينبغي عليه أن يقيم البرهان عليه : أعني أن "استقرار" أو "تبلور" ميزان القوى العسكري كان مقدرا سلفا (وبودنا في هذه الحال أن نعلم من قبل من!). وأن هذه القوى العسكرية كانت مستقلة عن "تبلور" القوى الاجتماعية والسياسية. وأن هذه القوى كانت مستقلة أيضا عن الاتجاه السياسي الذي تبنته حكومة الجبهة الشعبية المزعومة. وأن وزن الستالينية داخل الحكومة كان منوطا بوزيرين أو ثلاثة وزراء ستالينيين. لا بضغط الإتحاد السوفياتي وشحناته المحدودة من الأسلحة. وما كانت تمثله هذه الشحنات من ابتزاز رهيب.

وبديهي أن في وسع المرء لأن يدعي. في سماء المجرد. أن الطبقة العاملة الإسبانية لو كانت تملك في حينه ما فيه الكفاية من النضج لتأسيس حزب ثوري مستقل عن موسكو. لما كانت موسكي أفلحت في نوع الثورة من الانتصار. ومثال كوبا له دلالته البالغة من هذا المنظور. ولكن لا جدوى من التفكير في سماء المجرد. فالثورة الإسبانية اندلعت بعد ثورة اوكتوبر بأقل من عشرين عاما. ولم يكن للطبقة العاملة (باستثناء طليعة صغيرة جدا) من داع للشك في أن حكومة ستالين ليست استمرارا للحكومة السوفياتية التي أنشأت الأممية الشيوعية بهدف إنضاج الثورة العالمية. ولهذا ما أمكنها ان تفهم. قبل فوات الأوان. ضرورة إنشاء حزب آخر للسير بالثورة قدما إلى الأمام. ولقد خان

ستالين الثقة والإيمان بالإتحاد السوفياتي وبالأممية الشيوعية حتى يعزز تحالفه العسكري مع فرنسا الإمبريالية. ألم يقل لرجال أعمال باريس وسادة البورصة: إنني لا أريد البتة. أيها السادة. أن أزرع الاضطراب في مستعمراتكم. ولا أريد القيام بثورة اشتراكية في إسبانيا. فأنا حليفكم المخلص! ذلكم هو جوهر سياسته في إسبانيا. ومن ثم كان البورجوازيون الصغار من المعسكر الجمهوري يعتمدون على الحزب الشيوعي لإنجاح الثورة المضادة. فقد كان هذا الحزب أقدر من غيره على تضليل العمال لأنه كان يعمل بكفالة الثورة الروسية الكبرى. وعندما بدأت القوى الجمهورية بتصفية منجزات تموز 1936 الثورية. كانت الهزيمة قد أصبحت محتمة. ذالكم هو الجدل الحقيقي للقوى الاجتماعية والسياسية في اسبانيا والدور الهام الذي لعبه ستالين فيه(7).

وسيكون مثالنا الثاني سياسة الحزبين الشيوعيين الفرنسي والإيطالي بعد الحرب. تلك السياسة التي استهدفت حل الجماعات العمالية المسلحة التي تشكلت في مرحلة المقاومة. والدخول في حكومات ائتلافية، وتغطية أعمال القمع والحروب المناهضة للثورة في المستعمرات (الأحداث الدامية في الجزائر في أيار 1945). وبداية العدوان على فيتنام، في وقت كان فيه الحزب الشيوعي الفرنسي مشتركا في الحكومة. أن المسألة في نظر كراسو لفي منتهى البساطة: ان احتمال نجاح محاولة الاستيلاء على السلطة في فرنسا وايطاليا كان ضعيفا للغاية (8). وهو يصادر هاهنا أيضا على المطلوب، فنحن لم نتكلم قط عن محاولة استيلاء فورية على السلطة عن طريق التدخل المسلح، إنما تكلمنا عن **إستراتيجية** تمهد الطريق لانتصار الثورة الاشتراكية. وعندما ثار العمال الايطاليون في 14 تموز 1948 واحتلوا عددا كبيرا من النقاط الإستراتيجية، كان من الصعوبة بمكان على "القوات الأميركية" (كم كان قد تبقى منها في ايطاليا؟) ان تقمع ثورة ايطالية. ولا مراء في ان ذلك التمرد كان سيكون أقوى مما كان في الواقع لو اتجه الحزب الشيوعي نحو الثورة مند 1944. ولا مراء في أننا لا نستطيع ان نرى في السياسة الإصلاحية التي انتهجها الحزبان الشيوعيان الفرنسي والايطالي في فترة 1944-1946 عاملا عديم الأهمية في تطور علاقات القوة في هذين القطرين.

ما أكثر التفسيرات التي قدمت بعد فشل الثورة الألمانية في 1919-1920! ولا ريب في أنها جميعا كانت تنطوي على جزء من الحقيقة، بل ثمة من احتج بان القنانة لم تلغ في بروسيا إلا في مستهل القرن التاسع عشر (متناسيا أنها قد

ألغيت في روسيا بعد أكثر من خمسين عاما، من دون ان يحول ذلك دون انتصار الثورة فيها).

وقد وضع لينين حدا لجميع تلك التفسيرات المتحذلقة إذ حمل الاشتراكيين-الديمقراطيين بصريح العبارة تبعة الأحداث. وهو بذلك لم يدلل على نزعة "مثالية" أو نزعة "واحدية سوسيولوجية"، وإنما دلل على حس ثوري سليم شبه قطري. فعندما ينشأ وضع ثوري في قطر تسير فيه الطبقة العاملة منذ عشرات السنين وراء حزب يجاهر بتأييده للاشتراكية، فان السياسة التي ينتهجها هذا الحزب لابد ان تكون لها تأثير الحاسم على مصير الثورة. وما أصعب استبدال النوني المكلف بقيادة السفينة في منتصف الرحلة! وإذا كان النونية الاشتراكيون-الديمقراطيون يتحملون ثقل المسؤولية عن هزيمة ألمانيا 1919-1920، فإن النونية الستالينيين يتحملون مثلها في الهزائم المتلاحقة في الثلاثينات والأربعينات.

يزعم كراسو ان تروتسكي كان لا يقيم شأنا لصراع الطبقات على الصعيد القومي. وهذا الزعم مثير للفضول حقا، لا ستالين بالتحديد هو الذي فعل ذلك لصالح دبلوماسية البيروقراطية السوفياتية. فقد كان على الأحزاب الشيوعية في كل قطر على أن تتبع آليا نفس التكتيك (كما فعل الحزب الشيوعي الهندي على سبيل المثال عندما عارض الانتفاضة القومية في تموز 1946)، وكان هذا التكتيك رهنا بالدبلوماسية الملتوية التي ترسمها البيروقراطية السوفياتية. وبالمقابل كان تروتسكي يلح على ألا يتدخل الكومنترن والدولة السوفياتية في شؤون النضال الثوري في كل قطر، وأن يقتصرا على مساعدة الأحزاب الشيوعية على لم شعت غالبية البروليتاريا المستغلة في تلك الأقطار وعلى الاستيلاء على السلطة عند الحاجة. وكانت هذه الإستراتيجية تمثل دفاعا فعالا عن الاتحاد السوفياتي على المدى الطويل، ولكنها كانت تتطلب تحليلا دقيقا وموضوعيا لميزان القوى الاجتماعية والسياسة في كل قطر وفي كل لحظة. أما تصوير تروتسكي بصورة رجل "يريد الثورة" في كل مكان وزمان، فتكرار لفرية ستالين نموذجية.

وحدة النظرية والممارسة

في ردنا الأول على كراسو رأينا أنه بعد أن أقام تعارضا دائما بين لينين وتروتسكي ، راح يسدد سهام نقده إلى عمل تروتسكي و نظريته ، الأمر الذي

قاده إلى تحريف نظرية لينين وعمله. وبالفعل تصعب مهاجمة تروتسكي من دون مساس بلينين – وفي المقام الأول لأن تروتسكي هو المدافع الأوفى عن لينين بعد 1923 ومتابعته.

يقر كراسو بأن مقترحات تروتسكي بصدد التصنيع كانت في محلها. ويقر بأن نقده لسياسة الكومنترن في ألمانيا بين 1930 و1933 كان في محله أيضا(8). وإذا لم نقم اعتبارا لغير هذين المظهرين من نضال تروتسكي، فإن النتائج أكثر من كافية. ومن اللغو التوكيد بأن وجهات نظر تروتسكي حول هذه الموضوعات كان يشوبها " تفاؤل ساذج" : فالعكس هو الصحيح. فما كان يهديه سواء السبيل هو القناعة الراسخة بوجوب تحاشي كارثة وشيكة. ففي روسيا كان وجود السلطة السوفياتية بالذات موضع رهان، ففي ألمانيا كان وجود أقوى حركة عاملة في الغرب (إن لم نقل في أوروبا قاطبة) عرضة للخطر.

لنطرح على كراسو سؤالا بسيطا: ماذا كان ينبغي على تروتسكي أن يفعل في هاتين الحالتين الخاصتين؟ أن يلزم الصمت؟ ألا يعبر عن انتقاداته إلا داخل الحزب؟ وإذا كان الطريق مقطوعا عليه، كما قطع بعد 1926 ؟ هل كان ينبغي أن يكتفي بأن يعقد آماله (تفاؤل ساذج!) على تغيير الحزب لطريقة ذات يوم، بالرغم من القوى الاجتماعية التي كانت تضغط عليه، وبالرغم من النظام الداخلي الذي كان يطالب المعارضة اليسارية بالتخلي عن أفكارها، بالرغم من النتائج الموضوعية للأخطاء المرتكبة ؟ أم كان ينبغي عليه أن يلعب دور" مراقب نقدي" لأحداث مسرح السياسة العالمية، دور المتفرج الذي لا يريد أو لا يستطيع المساهمة في الصراع الحقيقي ؟

إن كراسو سيجد مشقة في البرهان على أن أي من هاتين الإمكانيتين اللتين كانتا متاحتين لتروتسكي (الانتهازية أو هجر الحياة السياسية) يمكن وصفهما ب"اللينينية" بصورة من الصور! ومهما نقب في تاريخ لينين كزعيم سياسي، فلن يعثر على أي مثال لمثل ذلك الموقف. ففي كل مرة تكونت فيها لدى لينين القناعة بأن غالبية الحزب على خطأ من أمرها، ناضل ضد هذا الخطأ بتصميم وبأس شديدين لم يتوصل تروتسكي نفسه إلى مثليهما بعد 1923. هكذا كانت الحال قبل الاستيلاء على السلطة، وهكذا ظلت الحال بعد الاستيلاء على السلطة (إن الحقيقة الكاملة عن نضال لينين الأخير ضد ستالين وأورجونيكدزه بصدد المسألة الجيورجية لم تعرف إلا مؤخرا، وذلك بعد نشر المجلد 26 من مؤلفاته الكاملة). ومن المستحيل أن نتصور أن لينين كان على استعداد

لمساومة البيروقراطية أو للاستسلام أمامها. ومن رابع المستحيلات أيضا أن نتصور أنه كان على استعداد لهجر الحياة السياسية.

في مستطاع كراسو أن يقول أن البيروقراطية كانت ستقهر منذ عام 1923 فيما لو بقي لينين على قيد الحياة. ولكنه حتى لو فعل لظل مبتعدا عن المشكلات الحقيقية. فمن غير الممكن أن يزعم المرء في آن واحد أن الطبقة العاملة كانت شبه "منحلة" وقتئذ وأن سلطتها كان يمكن أن تتأكد من جديد لمجرد أن زعيما أكثر فعالية (لينين) قد حل محل زعيم آخر(تروتسكي). فعجز "الحرس القديم" عن تقييم تطور الأحداث تقييما سليما وعن التكيف معه لم يكن عجزا جديد طارئا فلقد تجلى هذا العجز في شباط-أدار 1917. ولقد أمكن للينين في ذلك العهد أن يقوّم الاتجاه الخاطئ لأطروحاته التي قدمه في نيسان. ولكنه لم يتوصل إلى ذلك إلا لأنه كان يقف على رأس قوة ثورية خارقة، ولأن الآلاف من العمال البلاشفة كانوا يطالبون بإلحاح بنفس ما كان يطالب به. أما في 1923-1924 فقد لزم هؤلاء العمال الصمت أو أنهم كانوا قد قضوا نحبهم. ومن غير المرجح – وهذا أقل ما يمكننا قوله – ان لينين كان سيفلح في منع داء البيروقراطية من السريان إلى الحزب. ذلك ان الحرس "القديم" كان قد كف عن ان يكون أداة ثورية.

وفي وسعنا الاستشهاد هاهنا بموقف لينين من الأممية الثانية في عام 1914. فهذا الموقف كان نذيرا فصيح الدلالة بما سيكون عليه رد فعله عندما ستتولد لديه القناعة بأن "الحزب القديم" قد خان الثورة الاشتراكية. فقد كانت قطيعته مع الأممية الثانية جذرية لا تقبل مساومة. ولم يقم اعتبارا لا لقانون العدد الأكبر ولا لتأثير الجماهير.لم يقم اعتبارا لغير البرنامج والأفكار الصحيحة والمصالح التاريخية للطبقة العاملة. وكان على إيمان راسخ بأن الجماهير ستنحاز عاجلا أو آجلا إلى الأقليات الصغيرة الأممية النزعة. لان تفاقم التناقضات الاجتماعية لابد ان يؤدي إلى انتفاضات ثورية، وحتى يومنا هذا لم يؤيد التاريخ هذا التحليل إلا بصفة جزئية وفي بعض البلدان فحسب. فهل يرى كراسو والحالة هذه، هو الذي يقدر الوقائع عالي التقدير. ان لينين أخطأ إذ قاطع الأممية الثانية وطالب الأمميين بتأسيس أحزاب شيوعية جديدة (مازال معظمها إلى اليوم عبارة عن أقليات صغيرة).

لقد حذا تروتسكي حذو لينين حينما وعى انحطاط الدولة السوفياتية والأممية الشيوعية. والماركسي لا يستطيع لا ان يقبل بتسوية مع الانتهازيين والبيروقراطيين، ولا ان ينسحب من حلبة السياسة الثورية. ان وحدة النظرية

والممارسة تفضي بان يجد صراع الطبقات في العالم، عندما يكون في منعطف من تاريخه، برنامجا جديدا للتعبير عن نفسه. برنامجا لا يمكن ان يتجسد ويصبح حقيقة واقعة إلا من خلال تنظيم جديد على الصعيد القومي والأممي معا. وكما طالب لينين بإنشاء الأممية الثالثة في 1914. طالب تروتسكي بالرابعة بسبب الهزائم التي راحت تمنى بها الحركة العاملة. كذلك فان الدعوة إلى الأممية الرابعة كانت تعبيرا عن الأمل في نهضة جديدة للثورة العالمة.

يحاول كراسو التملص من هذه المسائل الأساسية بعذرين واهيين، فهو يقول ان البروليتاريا قد استولت فعلا على السلطة في بعض الأقطار بقيادة الحزب الشيوعي. ويقول ان أممية تروتسكي الرابعة قد لبثت عاجزة. وفي ما يتعلق بالحجة الأولى يكفي ان نذكر كراسو بان تروتسكي لو يستبعد مثل ذلك الاحتمال(9). وكل ما هنالك انه كان يشك كبير الشك في ان يصبح ذلك الاحتمال هو القاعدة بدل ان يضل استثناءا. ولقد أبان التاريخ انه كان على حق. وأبان بوجه خاص ان الطبقة العملة في أي قطر صناعي لم تكن قادرة على استلام السلطة بدون مساعدة حزب ثوري متمرس بالبرنامج اللينيني وبإستراتيجيته وتكتيكه.

أما بالنسبة إلى الحجة الثانية، فقد كان الأولى بكرا سو ان يكون أكثر تحفظا. فمسير الحزب البلشفي بين صعود وهبوط ويسر وعسر وثيقة الارتباط بتقلبات الثورة ذاتها. وفي مراحل الجزر والتراجع، لا يبقى للبلشفية من خيار غير ان تحاول الحفاظ على البرنامج وعلى استمرار النظرية. ولقد دامت مرحلة التراجع هذه في روسيا خمسة أعوام، من 1907 إلى 1912، أما على الصعيد العالمي فقد كان على اللينينيين ان يواجهوا صعود الرجعية طوال عشرين عاما، من 1923 إلى 1943، وكانت محاولة الحفاظ على البرنامج وإطارات الحزب أصعب بما لا يقاس. لان مرحلة التراجع كانت أطول، وأشكالها أكثر خبثا (الفاشية والستالينية). وبوجه خاص لأنه لم يكن هناك بد من توليد الحركة الثورية العالمية للمرة الثالثة بعد إخفاق المحاولتين الأوليين وتعاظم ريبية البروليتاريا.

ان مرحلة التراجع هذه قد أعقبتها مرحلة تجدد اقتصرت تقريبا، بعد بضع سنوات من المراوحة، على تلك الأجزاء من العالم التي هي أشدها تأخرا والتي لم تكن الشروط فيها مناسبة جدا لبعث اللينينية. ولكن عندما امتدت الحركة الثورية إلى أقطار ذات غالبية بروليتاريا صناعية متطورة. تبدل الوضع جذريا. وقد أقمت فرنسا وتشيكوسلوفاكيا ساطع البرهان في 1960 على ان

الثورة لا يمكن ان تقوم من جديد في الأقطار الغربية ما لم تتأكد من جديد أيضا مبادئ اللينينية الأساسية: العمل الثوري ضمن إطار صراع الطبقات. دولة من نمض سوفياتي. أممية بروليتاريا، والأممية الرابعة في الوقت الراهن المنظمة الوحيدة التي تجسد هذا البرنامج في إطارات وبنى تمتد عبر القرات الخمس. إنها لينينية اليوم الحية.

في وسعنا الآن ان نعطي ماركسية تروتسكي تعريفا أصح من تعريف كراسو. فماركسية تروتسكي تسعى إلى ان تُدمج بمذهب الاشتراكية العلمية الكلاسيكي الجواب على المشكلات النوعية للثورات والثورات المضادة في عصر إمبريالي: مشكلة السلطة السوفياتية(10) التي تقوم على أساسها ديكتاتورية البروليتاريا. مشكلة الثورة الدائمة في الأقطار المتخلفة. مشكلة الدينامية الأممية لانتصار الثورة البروليتاريا. مشكلة الطبيعة المزدوجة للبيروقراطية في الطبقة العاملة. وأخير مشكلة العلاقة بين الحزب وجهاز الحزب والطبقة العاملة. وما نقاط الضعف التي لابستها (لقد أدرك على سبيل المثال بعد تأخر ضرورة الحزب البلشفي وطبيعة دوره في السيرورة التاريخية للثورة البروليتاريا) سوى تعبير عن تلك المحاولة الماردة. ولقد دمجت بعض أجوبة تروتسكي على تلك المشكلات بالماركسية الكلاسيكية مند عام 1917. ودمج بعضها الأخر تدريجيا بالماركسية الثورية بعد 1923.

تسعى ماركسية تروتسكي إلى توكيد الطبيعة **البروليتاريا** بالمذهب الثوري. ضد الخطر الثلاثي المتمثل في الانتهازية البورجوازية الصغيرة والنزعة القومية وداء البيروقراطية. تسعى إلى رفع التفسير الماركسي للتاريخ إلى أعلى ذراه لاكتشافها وتطبيقها قانون التطور المتفاوت والمركب. ولن يكتب الفوز اليوم للثورة العالمية ما لم يجري تمثل ودمج العناصر الأساسية من ماركسية تروتسكي.

نظرة ثانية بصدد
"التجريبية وعلم التاريخ الماركسي"

يستند تعريفنا لماركسية تروتسكي، بخلاف تعريف كراسو، إلى نقطتين رئيسيتين : تقييم الطبيعة التاريخية للعصر الذي افتتحته ثورة اوكتوبر وتقييم الخلفية الاجتماعي لنضال الحركة الشيوعية في العالم منذ1923. ولقد قلنا أن ذلك العصر هو عصر ثورة عالمية (الأمر الذي تترتب عليه بالبداهة

انتكاسات نحو الثورة المضادة). وقلنا أن هذا النضال هو في جوهره صراع بين البيروقراطية السوفياتية والطبقة العاملة. وفي إطار هذا التفسير كان تروتسكي يدافع عن مصالح البروليتاريا السوفياتية والأممية، لأنه كان يناضل ضد البيروقراطية التي قضت بالانحطاط على الدولة السوفياتية والأممية الشيوعية.

لنقارن الآن بين هذا التفسير وبين تلخيص كراسو لموقف تروتسكي :" إن موقف اللامبالاة الذي وقفه تروتسكي من المؤسسات السياسية قد فصله عن لينين قبل ثورة أوكتوبر و أبعده عن الحزب البلشفي، وقد وجد نفسه معزولا داخل الحزب في العشرينات – وكان في ذلك هلاكه في آخر المطاف- بنتيجة الأفكار التي نادى بها والأعمال التي قام بها قبل العشرينات، أما في الثلاثينات فقد حالت أمميته المجردة بينه وبين فهم الدينامية القومية الداخلية المعقدة التي كانت تتحكم في تطور شتى الحركات الثورية في العالم".

إن هذا الحكم ينطوي على تحريفين جوهريين للماركسية، فهو يفسر بأخطاء شخص واحد في مرحلة شبابه صراعا سياسيا تاريخيا خاضه مئات الآلاف من الأشخاص وكانت نتائجه على صراع الطبقات في العالم هائلة. كما أنه يرجع نضال عشرات الملايين من الشغيلة اليدويين ضد البيروقراطية وتذمرهم منها واحتجاجهم وتمردهم عليها إلى هذا التعريف الأجوف :" الدينامية القومية الداخلية المعقدة التي كانت تتحكم في تطور شتى الحركات الثورية في العالم". و كل اعتقادنا أن كراسو سيجد مشقة كبرى في أن يفسر للناجين من معسكرات العمل الإجباري في سيبيريا، هذا إذا لم نشأ أن نتكلم عن العمال المجريين في عام 1956 أو العمال التشيكيين في عام 1968. إنهم لم يعانوا الأمرّين على يد بيروقراطية محافظة كانت تحافظ عن سلطاتها وامتيازاتها، وأن علة شقائهم إنما ترتد إلى" الدينامية القومية الداخلية المعقدة".

إن كراسو بخلاف المنطق مخالفة صريحة من منظور ماركسي إذ يفصل تفسيره لماركسية تروتسكي عن الجدل الحي للقوى الاجتماعية وصراعها، ومثل هذا الفصل يعني تقييم الاتجاهات سار فيها التاريخ من منظور نزعة تجريبية فظة. وبذلك يستحيل على المرء أن تكون له رؤية شاملة للعصر التاريخي الذي دشنته الحرب العالمية الأولى في العالم. وهذا يقول بالضرورة إلى إعادة نظر تحريفية فيما تعنيه اللينينية- وبوجه خاص الأممية الثالثة. وهذا يقضي بالفشل على كل محاولة للتاريخ الماركسي بسبب الخلط بين التصورات الذهنية الذاتية للأفراد والجماعات وبين تقييم دورهم الموضوعي في التاريخ.

كتب كراسو :" ما كان القادة البلاشفة الآخرون يعدون تروتسكي حليفا، بل كانوا يرون فيه بالأحرى مصدر الخطر الرئيسي بسبب ماضيه غير اللينيني وتفوقه في المضمار العسكري ودوره البارز إبان الحرب ونفوذه في المناقشات النقابية". وبعبارة أخرى : إن تروتسكي بسبب الأخطاء التي ارتكبها في شبابه (على اعتبار أن دوره كقائد إبان الحرب و في المناقشات النقابية هو إلى حد كبير أسطورة) عجز عن جمع شمل "الحرس القديم" حوله.

ونحن لا ننكر أن هذا جزء من التصورات الذهنية التي برر بها زينوفييف وبوخارين انحيازهما إلى صف ستالين ضد تروتسكي. ولكن كراسو لا يستطيع أن يكون ساذجا إلى حد الخلط بين الدوافع الاجتماعية لموقف من المواقف وبين المبررات الذاتية الفردية لأبطال التاريخ.

لقد انصرمت حقبة طويلة منذ أن علمنا ماركس أن نحكم على الناس بناء على ما يفعلونه لا على ما يقولونه. وقد يكون في مستطاع الاشتراكي-الديمقراطي الألماني "مستقيم" أن يعلل معارضته في كانون الأول 1918 لمحاولة إقامة جمهورية سوفياتية في بلاده بحجة أن "الإرهاب الأحمر" وتدابير القمع التي اتخذها لينين بحق المناشفة اليمينيين قد أثارت اشمئزازه، وبحجة أنه كان يريد الدفاع عن الحريات الديمقراطية، وبحجة أنه كان يتوجس خيفة من أن تؤدي الثورة إلى ثورة مضادة، وبحجة أنه كان على قناعة تامة بأن "الشروط الموضوعية لم تكن متوفرة"، الخ. ولكن الماركسي(وكذا بالأحرى اللينيني) لا يمكن أن يصدق أن هذه التصورات هي فعلا **علة** انحيازه إلى العسكرية الألمانية ضد جماعة سبارتاكوس. ذلك الانحياز الذي كان بداية التطور التاريخي الذي حمل هتلر إلى السلطة والذي أودى بأولئك الاشتراكيين-الديمقراطيين أنفسهم إلى معسكرات الاعتقال جنبا إلى جنب مع الشيوعيين.

لقد كانت الدلالة الموضوعية لوفق الاشتراكيين-الديمقراطيين الألمان في 1919 التحالف بين بيروقراطية عمالية ذات امتيازات وبين الثورة المضادة البورجوازية ضد الثورة البروليتاريا. وخلف هذا التحالف يكمن العجز عن فهم التناقض بين الديمقراطية البروليتارية والديمقراطية البورجوازية. وعندما انحاز "الحرس القديم" إلى ستالين ضد تروتسكي، كان هذا معناه انضمامه إلى البيروقراطية السوفياتية ضد البروليتاريا السوفياتية. وخلف هذه الخطوة كان يمكن العجز عن فهم التناقض بين الديمقراطية السوفياتية والديكتاتورية البيروقراطية، وكذلك العجز عن فهم نظرية الثورة الدائمة. أما ما سوى ذلك فعبارة عن تصورات ذهنية ذاتية قد تكون مفيدة في ان نتفهم لماذا وكيف عبر

بعض الأفراد عن بعض الأفكار، ولكن لا يجوز ان يكون لها الدور الأساسي عند تقييم **القوى الاجتماعية** التي انحاز إليها هؤلاء الأفراد.

ان كراسو يعجز عن تأويل ماركسية تروتسكي تأويلا متلاحما لأنه يحاول ان يفسر دور تروتسكي في التاريخ ببعض "خطايا" مجردة وببعض أفكار مسبقة. والأولى به ان يمعن النظر ويتأمل في حكم ماركس هذا على لاسال: "انه لاسال" سيتعلم على حسابه ان الارتقاء بعلم من العلوم، عن طريق النقد، إلى مستوى الذي يمكن معه عرضه جدليا لأمر يختلف كل الاختلاف عن تطبيق نظام منطقي مجرد وجاهز على معارف غامضة لهذا النظام"(10). ان هذا الحكم ينطبق تمام الانطباق على محاولة كراسو الفاشلة في تطوير التأويل الماركسي لمصائر الثورة الروسية وللذوق السائد اليوم ولمشارب العصر.

الهوامش:

1- صولومون شفارتز: "العمال في الإتحاد السوفياتي"، باريس 1956.

2- يقف كراسو مطولا عند مقدرة لينين على القبول بتسويات. ولكن لينين قال بصريح العبارة أنه لا يقبل إلا بالتسويات التي تتيح للحزب الشيوعي أن "يعزز-لا أن يضعف- وعي البروليتاريا الطبقي وروحها الثورية وقدرتها على الكفاح والانتصار". المؤلفات الكاملة- المجلد 21. وفي هذا النص ذاته الذي عالج فيه مسألة التسويات. أعني أهجيته "مرض الطفولة اليساري". بين لينين بصريح العبارة أيضا أن تصميمه على مكافحة البيروقراطية لا يسقط من الحساب ضرورة بعش التسويات.بيد أن كراسو لا يشير البتة في تحليله إلى هذه النقطة. وهكذا لا يبقى من لينين غير صورة كاريكاتورية له بوصفه نصير التسوية مع البيروقراطية حتى لو أدى ذلك إلى خنق وعي البروليتاريا الطبقي وروحها الثورية لا إلى إضعافها فحسب : حفا إنها لصورة كاريكاتورية!

3- كان تروتسكي في الخصومة النقابية، وبالرغم من غلطته العامة. اثقب نظرا من لينين في إدراكه أن مصدر سلطة البيروقراطية هو التسيير الاقتصادي ومهمة توزيع الأرباح الموكولة إليها.

4- تروتسكي: "الأممية الثالثة بعد لينين".

5- تروتسكي: "الثورة الدائمة" المدخل.

6- نسبة إلى ارل براودر زعيم الحزب الشيوعي الأمريكي في الأربعينات. - المعرب-

7- لا بد من القول بالمناسبة أن الحكة التي جرى التذرع بها في حينه (التهديد العسكري من ألمانيا النازية) لم تؤكدها مطلقا المصادر التي نملكها الآن. فنحن نعلم اليوم أن ألمانيا في صيف 1936 لم تكن إلا في بداية تسلحها، وأن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا مجردتين من السلاح تقريبا. وأن أقوى الجيوش الأوروبية. بل في العالم قاطبة. كان الجيش الروسي والجيش الفرنسي- في وقت كانت فيه فرنسا على عتبة الثورة وكانت عدة ملايين من العمال يحتلون مصانعهم في حزيران 1936. والحق أن تلك الحقبة مثلث انعطافا حاسما في التاريخ. ولكن كراسو، بدلا من التعويل على الوقائع، يكتفي بأن ينفي. في سماء المجرد. أن انتصار الثورة في إسبانيا (لو كان الإتحاد السوفياتي انتهج سياسة مغايرة) كان كفيلا بتغيير مصير أوروبا ويمنع الفاشية من الهيمنة على القارة بأسرها.

8- لنقل بالمناسبة أنه من غير الصحيح أن اليسار كان في اليونان منه في فرنسا وإيطاليا بين 1944 و1947. ففي فرنسا حصل الشيوعيون والاشتراكيون على الغالبية المطلقة في الجمعية الوطنية المنتخبة الأولى. وكان وزن البروليتاريا في هذين القطرين أكبر منه في اليونان.

9- ليس من قبيل الصدفة أن لا يوافق كراسو تروتسكي إلا على انتقاداته لسياسة الكومنترن اليسارية المتطرفة. أما موقفه من الانتهازية اليمينية فيحوطه التباس : هذا أقل ما يمكن أن يقال. ولكن كيف يمكنه ان يتخذ من لينين قدوة وأن يضرب في الوقت نفسه عن النضال المر الذي خاضه ضد الانتهازية اليمينية ؟

10- جاء في برنامج الأممية الرابعة الانتقالي. الذي رسمه تروتسكي. أنه لا يجوز استبعاد احتمال صعود الأحزاب الانتهازية للطبقة العاملة إلى سدة السلطة تحت ضغط الجماهير في حال قيام ظروف استثنائية من حرب أو انحلال النظام الاجتماعي. وهذا بالضبط ما حدث في الحالات التي يستشهد بها كراسو.

11- كان تروتسكي أول من فهم المبدأ الذي ينص على أن للمجالس (السوفييتات) دورا أساسيا في تنظيم جهاز دولة من نمط بروليتاري. ولينين لم يدرج هذا المفهوم في النظرية البلشفية إلا في عام 1917. ولم يدخله في برنامج الأممية الشيوعية إلا في عام 1919-1920.